بليخانوف

الاشتراكية الخيالية

في

القرن التاسع عشر

ترجمة: حنا عبود

مراجعة: الدكتور فؤاد أيوب

دار دمشق
للطباعة والنشر

بليخانوف

الاشتراكية الخيالية

في

القرن التاسع عشر

ترجمة : حنا عبود

مراجعة : الدكتور فؤاد أيوب

دار دمشق
للطباعة والنشر

مقدمة

كان ج ـ ف ـ بليخانوف، وهو من أبرز الشخصيات في الحركة العمالية العالمية، نظريا كبيراً، وداعية موهوباً ومدافعاً عن الماركسية.

وكانت مؤلفاته الفلسفية احدى الاسهامات الهامة في تطور الفكر الاجتماعي فى روسيا. وبالفعل فقد وصفها لينين بأنها أروع ما في الأدب الماركسي الامي.

لقد مارست مؤلفاته تأثيراً لا يحي في اثبات المادية الديالكتيكية، والمادية التاريخية، والاشتراكية العلمية، كما هـــو الامر في تاريخ الفلسفة والأخلاق وعلم الجمال والمنطق وعلم النفس. لقد كان صاحب عدد من الأفكار المستحدثة التي ثبتت وطورت، بابداع، بعض العقائد الفلسفية ذات الأهمية الكبرى في الماركسية.

لقد قدم بليخانوف تقييما صحيحاً للحياة الروسيه في نهاية القرن التاسع عشر، وقد كانت حججه النظرية، التي اثبتت الحاجة الى ضرب الطبقة العاملة كعنصر حاسم لانهاء الأزمة التي كانت البلاد تجتازها، ذات أهمية كبرى بالنسبة الى مصير روسيا ككل.

ولد ج ـ ف ـ بليخانوف عام ١٨٥٦ لعائلة من صغار الأشراف وملاك الأرض في تامبوف غوبرينا، وانضم، خلال العقد السابع

من القرن ، الى حركة « النارودنيك [1] » الثورية في عهد تلمذته وهاجر الى سويسرا بناء على تعليمات من المركز الثوري ، عام ١٨٨٠ ، ليفلت من اعتقال البوليس القيصري له . وأمضى عدة سنوات في تلك البلاد ، يدرس الادب الاشتراكي ومؤلفات ماركس وانجلز الفلسفية والاقتصادية ، والحركة العمالية العالمية .

وفي ١٨٨٣ ، شرع بليخانوف ، للمرة الاولى ، في الدفاع عن نظرية ماركس وانجلز ، والعمل على توطيدها . وقد نظم في الخارج عصبة **تحرير العمل** ، وهي الجماعة الماركسية الروسية الاولى التي لعبت دوراً مهماً في تنشئة الوعي الثوري لدى ممثلي الطبقة العاملة الروسية التقدميين وذلك في المراحل الاولى من تطور هذه الطبقة .

في تلك السنة نفسها صدر لبليخانوف أول مؤلف ماركسي « الاشتراكية والنضال السياسي » وارسل الى روسيا . ان هذا المؤلف ذا الاهمية الاجتماعية البارزة ، ينتقد بحرارة النظريات القديمة التي كان « النارودنيك » ـ وهم الثوريون الروس في ذلك الوقت ـ قد بنوا كل فعالياتهم عليها .

في ١٨٨٤ كتب بليخانوف مؤلفه الثاني « اختلافاتنا » الذي قرر ، مع استمراره في نقد نظرات النارودنيك ، ان الوقت قد آن لتشكيل حزب للطبقه العاملة في روسيا . « ان الاسراع ، قدر

---

١ ـ ارجع في هذه الارقام الى الملاحظات في نهاية الكتاب « المترجم »

الامكان » في تنظيم حزب عمالي هو الطريقه الوحيدة لحل كل التناقضات الاقتصادية والسياسية في روسيا الحالية . في ذلك الطريق يكمن النجاح والنصر ، وكل الطرق الاخرى لاتقود الا الى الاخفاق والضعف ☆»

والى جانب هذين المؤلفين : « الاشتراكية والنضال السياسي » (١٨٨٣) و « اختلافاتنا » (١٨٨٤) كتب بليخانوف عدة مؤلفات ماركسية اخرى ، ومن أهمها « بمناسبة الاحتفال الستيني لهيغل » (١٨٩١) و « تطور النظرة الوحدانية الى التاريخ » (١٨٩٥) و « اغسطين ثييري والمفهوم المادي للتاريخ » (١٨٩٥) و « مختصر تاريخ المادية » (١٨٩٦) و « في أصول المفهوم المادي للتاريخ » (١٨٩٧) و « دور الفرد في التاريخ » (١٨٩٨) ومقالات موجهة ضد ادوار وبرنشتين ، وكونرادشميدت » وبيوتر ستروفي ، والكسندر بوغدانوف وتوماس كاريغ ماساريك ☆☆ هذه الاعمال وغيرها تتضمن دفاعاً مجيداً عن النظرية الماركسية وتثبيتاً وتطويراً لها .

وان مافي مؤلفة «تطور النظرة الوحدانية الى التاريخ» وهو من اعظم مؤلفاته الفلسفية ، من افكار المادية الديالكتيكية والاشتراكية العلمية ، قد نسفت تعاليم النارودنيك القديمة التي كانت وقائع الحياة قد رفضتها ، وبعثت في المناضلين الحقيقيين من أجل التحرر ، شعوراً

☆ انظر « المؤلفات الفلسفية المختارة » لبليخانوف مجلد ١ ص ٣٦٤

☆☆ انظر « المؤلفات الفلسفية المختارة » لبليخانوف مجلد ١ و ٢ طبعة ١٩٥٦

بالثقة في انتصار الثورة ، وساعد على تثقيف ثوريين حقيقيين .

في مؤلفات بليخانوف نجد الاهتمام مركزاً ، بشكل رئيسي على مسائل المادية التاريخية ، والاشتراكية العلمية ، وتاريخ الفلسفة ، ونقد علم الاجتماع البرجوازي . لقد أخضع الانظمة الفلسفية السابقة للماركسيه ، لنقد وتحليل علميين عميقين ، كاشفاً نقاط القوة والضعف فيها ، وموضحاً عجزها عن شرح قوانين التطور الاجتماعي .

وفي فضحه لمحاولات صقل الاختلافات بين مبادىء الماركسية والتعاليم الفلسفية السابقة للماركسية ، يرينا بليخانوف ، بصورة مقنعة ، ان توطيد الماديه الديالكتيكية والمادية التاريخية ونظرية الاشتراكية العلمية ، كان ثوره في الفكر الفلسفي والاجتماعي .

كُتب « الاشتراكية الخيالية في القرن التاسع عشر » عام ١٩١٣ عندما انحرف بليخانوف ـ مع بقائه مادياً لكتيكيا في الامور الرئيسية ـ عن الماركسية الثورية في بعض المسائل الاساسية للنظرية الماركسية ، واتخذ موقفا انتهازياً .

ان تحليلا لهذا الكتاب سوف يكشف عن أن بليخانوف ـ حتى في الفترة المنشفيكية من نشاطه ـ ظل في دراساته التاريخية والفلسفية مخلصاً لمبادىء المادية التاريخية . ان دراسة الاشتراكيات الخيالية في انكلترا وفرنسا وألمانيا تتسم بتحليل علمي عميق للموضوع ،

ومع أن بليخانوف يقول انه لم يستطع أن يقوم بدراسة للحركات الاجتماعية التي انتجت الافكار الاشتراكية الخيالية فان عرضه لنظرياتهم يشير ، بصورة عابرة في الحقيقة ، الى بعض الحقائق التاريخية المهمة التي احاطت بسمات واتجاه تطور هذه الافكار .

ان ما قام بليخانوف بدراسة كاملة عنه هي المصادر النظرية التي استقى منها الاشتراكيون الخياليون ، ومشاركة هؤلاء الخاصة في كنز الفكر النظري .

وتؤخذ هذه المشاركة بعين الاعتبار لكل قطر من الاقطار الثلاثة التي يستعرضها بليخانوف ، وفوق ذلك فهي تبين من خلال تحليل الظروف التاريخية الحسية . وفي الوقت نفسه يرينا المؤلف ان المدارس الثلاث تتحدر من الفلسفة المادية لعصر الأنوار في القرن الثامن عشر في فرنسا ، هذه الفلسفة التي كانت وقتئذ ذروة التفكير الفلسفي .

ويطور بليخانوف بثبات فكرة أن هولباخ وهلفيتيوس وديدرو واتباعهم كانوا ماديين مناضلين ، وايديولوجي البرجوازية الفرنسية لتلك الفترة الثورية من تاريخها عندما هبت بشجاعة وحزم ضد الاقطاعية وضد مختلف مؤسسات ومفاهيم العصور الوسطى . وفي تحليله للمادية والالحادية ، ونظرية المعرفة ، والنظريات الاخلاقية والتاريخية للماديين الفرنسية ونقدهم للاقطاعية ، يكشف بليخانوف عن نقاط قوتهم وضعفهم على حد سواء .

ويشير بليخانوف بحق الى أن المادية الفرنسية ، رغم نقائصها ، كانت مرحلة مهمة جداً في تطور تفكير البشرية النظري. ان الادب الفرنسي في القرن الثامن عشر يدين بقيمته الباقية إلى الارتباط المتين بين المادية الفرنسية وحاجات العصر ونقدها الباهت للاقطاعية والحاديتها النضالية والجريئة .

ان سائر اشتراكيي القرن التاسع عشر الخياليين ينحدرون في نظرياتهم عن فرضية ماديي القرن الثامن عشر القائلة ان الفضائل والمثالب الانسانية هي وليدة الظروف وان الخلق الانساني غير مكرس بعهدة الهية ، بل هو ينتج عن تأثير محيط الانسان .

إن معظم اهتمام بليخانوف موجه نحو افكار الاشتراكيين الخياليين الانكليز : تشارلز هال ، روبرت أوين ، وليم تومبسون الذين يرى بليخانوف أن الخدمة الرئيسية التي قدموها للبشرية هي في نقدهم المرير للنظام الرأسمالي . ويبين هال في مؤلفه الرئيسي « نتائج الحضارة على الناس في الدول الاوروبية » أنه كلما ازداد تجميع الرأسماليين للثروة كلما ازدادت الجماهير ادقاعاً ، « ان الثروة او السلطة المتزايدة للبعض » كما كتب هال « هي السبب في تزايد فقر الاخرين وخضوعهم ☆»

ويستطرد هال قائلا ان هذا ينمي تطور التناقضات الطبقية والصراع

☆ انظر فصل « الاشتراكية الخيالية الانكليزية » من هذا الكتاب

الطبقي . وعلى اية حال فان هذا النضال هو نضال غير متكافىء ما دامت الطبقة العاملة مجبرة دائما على الخضوع ، لانها لاتملك الوسائل لخوض النضال .

ان عدم المساواة الرهيب في توزيع الثروة هو السمة الرئيسية للحضارة البرجوازية القائمة .

وان الفكرة نفسها ، يعني ان البؤس ينتج عن عدم المساواة ، قد طورها اوين والاشتراكيون الخياليون الآخرون .

كتب أوين يقول « ان العالم مشبع بالثروة في الوقت الحاضر ، وثمة اساليب لاحصرلها لزيادتها اكثر فاكثر ، ومع هذا فالبؤس يتكاثر . تلك هي ، في هذا الوقت ، الحالة الفعلية للمجتمع البشري » .

ان نمو عدم المساواة واستمرار ادقاع الطبقات العاملة وتزايد ثروة الرأسماليين قد سبب قلقا هائلا لدى الاشتراكيين الخياليين في كل الارجاء ، هؤلاء الذين كرسوا تفكيرا جماً في سبيل ايجاد السبل والاساليب التي تقضي على هذا الاتجاه الواضح في التطور الاجتماعي للقرن التاسع عشر .

لقد شغلوا بمسألة قمع هذه الظاهرة الغامضة وايجاد ظروف اجتماعية تمكن العامل من تحصيل الثروة التي يخلقها هو نفسه . واذا كان هذا العامل لايستطيع الحصول على كامل انتاج عمله ، فانه يجب تنظيم الامور بحيث لاتكون حصة العامل من المنتج ضئيلة على هذه الصورة البائسة .

لقد انتقد الاشتراكيون الخياليون علاقات الانتاج البرجوازية، واكدوا على ان السبب الرئيسي لبؤس الجماهير في ظل الرأسمالية يكمن في كون وسائل الانتاج هي ملكيته الخاصة .

ان الاشتراكيين الخياليين الفرنسيين : لويس بلان وجان رينو، وبيير ليرو ، يرون بصورة اكثر او اقل وضوحا، ان التناقض الاجتماعي الاساسي لعصرهم هو في تعارض البرجوازية والشعب (لويس بلان) بله في تعارض البروليتاريا والبرجوازية ، وهي طبقتان تشتملان على الشعب وتختلفان في مصالحهما (بيير ليرو).

ان جميع الاشتراكيين الخياليين يوافقون على ان الثقافة تلعب دورا هاما في تكوين الخلق الانساني، وان المحيط هو الذي يقولب الانسان لذلك فالمطلوب من جميع المؤسسات الاجتماعية ان توجه فعاليتها لتحسين الطبقة الاكثر عددا وبؤسا : اخلاقيا، وثقافيا ، وبدنيا (سان سيمون) .

وان سمة اخرى مميزة لنظرتهم هي ايمانهم الجازم بالتطور المتزايد للجنس البشري ، وعلى اية حال فهم يعتقدون ، كما يشير بليخانوف بحق ان « مايشكل السمة المميزة للاشتراكية ليس هو مجرد الايمان بالتقدم بل اليقين بان التقدم يقود الى الغاء « استثمار الانسان للانسان» ، وان هذا اليقين ليكرر بالحاح في حكايات السان سيمونيين وكتاباتهم ☆ »

☆ انظر فصل «الاشتراكية الخيالية الفرنسية » من هذا الكتاب

ان الاشتراكيين الخياليين الالمـــان (وليم ويتلنج) كانوا قريبين جداً من ادراك الحقيقة المثالية الا وهي ان صفـــة المجتمع القادم سيقرره المجرى الموضوعي للتطور الاجتماعي كما يتظاهر في صراع الطبقات .

ويقول بليخانوف « انه يقول ان أي إحلال للجديد محل القديم هو ثورة ، لذلك لايمكن للشيوعيين الا ان يكونوا ثوريين ، وعلى اية حال فلن تكون الثورات دائما دموية ، بيد ان مجرى مثل هذه التغييرات لايتعلق بهم ؛ بل بسلوك الطبقات العليا والحكومات» .

بهذه الطريقة يقود بليخانوف القارىء الى التحقيق بان افكار الاشتراكيين الخياليين كانت احدى المنابع النظرية للماركسية . ان الاشتراكيين الخياليين قـــد حاولوا ، معبرين بذلـــك عن مصالح الجماهير المستثمرة من قبل الرأسمال ، ايجاد اثبات نظري عن الحاجة لاعادة بناء المجتمع وأتوا بعدد من الافتراضات الرائعـــة الخاصة بالمجتمع الشيوعي .

وعلى اية حال ، فعندما يصـــل الاشتراكيون الســـابقون للماركسية الى الطرق والاساليب اللازمه لاحداث التغيرات المطلوبة في المجتمع فسرعان مايكتشفون عن عجزهم وطوباويتهم وبخاصة لانهم لم يستطيعوا فهم قوانين التطور الرأسمالي . لقد كانوا تواقين الى خلق نظام اجتماعي لايوجد فيه فقراء او اغنياء ، ولا عبيـــد وأسياد . « ولكن الاشتراكية الخيالية لم تعن الا قليـــلا بمجرى

التطور التاريخي . والحقيقة ان اوين كثيرا ما قال بان النظام الاجتماعي الجديد يمكن ان يأتي فجأة مثل اللص في الليل ☆ » . فلم يكن الاشتراكيون الخياليون يؤمنون بمبادهة الجماهير التي خصصوا الكثير من تفكيرهم من اجل قضية تحريرها والتي لم يبخلوا بشيء من اجل مصالحها . كان معظمهم بجانب السلم بين الطبقات وكانوا يأملون بتحقيق الثورة الاجتماعية بدون اي نضال ، وذلك باقناع من بأيديهم الادارة في المجتمع .

ان سان سيمون وفوريه والاشتراكيين الخياليين الآخرين قد أدانوا الثورة الفرنسية لعام ١٧٨٩ ودعوها «انفجاراً مرعباً». لقد فشل الاشتراكيون الخياليون في ان يفهموا ان الصراع الطبقي واعادة البناء الثوري للمجتمع يستطيعان وحدهما ان يقودا عبيد الامس الى ان يصبحوا مواطنين احراراً مستقلين اقتصادياً ومعنوياً عن الرأسماليين ، اسيادهم بالامس ، وفشلوا في ان يفهموا ان الطريقة الوحيدة لاعادة بناء المجتمع هي في حمل العمال ، حمل الشعب الكادح ، على الاسهام في النضال الثوري .

ان النقيصة الرئيسية للاشتراكية الخيالية تكمن بالضبط في عجزها عن تمييز القوة القادرة على اعادة بناء المجتمع الرأسمالي الراهن بصورة جذرية . وحسب تعبير بلخانوف ، فان الاشتراكيين الخياليين يطالبون « بوضع حد لسوء توزيع الملكية بالضبط من

☆ انظر فصل « الاشتراكية الخيالية الانكليزية» من هذا الكتاب

قبل اولئك الذين يتمتعون بكل ماتوفره من امتيازات » . وقد قضت الماركسية على هذه النقيصة فبينت ان انعتاق العمال هو من شأن العمال انفسهم . ومن اجل تحقيق مهمة الانعتاق بنجاح يجب على العمال ان يشكلوا حزب الطبقة العاملة ، الخاص بهم ، المناضل المدرب المتسلح بأكثر النظريات الثورية تقدمية .

كتب بليخانوف « بدون نظرية ثورية لاتوجد حركة ثورية بالمعنى الحقيقي للكلمة . ان أي طبقة تناضل من أجل تحررها ، وأي حزب سياسي يهدف الى السيطرة ، لاتكون ثورية الا بقدر ماتمثل اكثر الاتجاهات الاجتماعية تقدمية ، وبالتالي ، تكون حاملة لأعظم الافكار التقدمية في عصرها . ان الفكرة التي هي ثورية بشكل فطري هي نوع من الديناميت الذي لايستطيع اي منفجر آخر ان يحل مكانه ☆ » .

وكان بليخانوف يعتبر الماركسية ذلك النوع من النظرية التي تشرح المهمات الحقيقية للطبقة العاملة . ان للطبقة العاملة تجد في الماركسية وحدها ، سلاحاً يجلب لها النصر ويساعدها في انجاز اعادة البناء الثوري للمجتمع البرجوازي وتحويله الى مجتمع اشتراكي .

وهكذا يكشف بليخانوف بشكل انتقادي او يحلل آراء الاشتراكيين الخياليين وعدم مقدرتهم على اكتشاف قوانين التطور التاريخي وتوطيدها علميا ، الاهمية العظمى لنظرية ماركس وانجلز

☆ انظر « المؤلفات الفلسفية المختارة » جزء ١ ص ٩٥ طبعة ١٩٥٦

عن الاشتراكية العلمية . انه يعتبر ظهور الاشتراكية العلمية حدثاً هائلا ونقطة انعطاف حيوية في تاريخ الفكر الانساني .

ضمن ج ـ ف ـ بليخانوف في كتابه هذا تحليلا علميا للافكار الاشتراكية السابقة للماركسية في القرن التاسع عشر . انه يبين دور وأهمية الاشتراكيين الخياليين كطلائع للاشتراكية العلمية.

م ـ سيدوروف

الاشتراكية الخيالية

في

القرن التاسع عشر (٢)

كانت آداب اوروبا الغربية في النصف الاول من القرن التاسع عشر ، كما هي الحال دائما وفي كل مكان، تعبيراً عن الحياة الاجتماعية وما دامت الظواهر التي قادت بمجموعها العام الى ظهور مايدعى بالمسألة الاجتماعية في ميدان النظريات الاجتماعية قد بدأت تلعب دورا مهما في حياة المجتمع في تلك المرحلة ، فقد يكون من المناسب ان نقدم عرضا لذلك الادب مع تخطيط مختصر لتعاليم الاشتراكيين الخياليين . ومع ان هذا التخطيط لايقع في دائرة تاريخ الادب ، بالمعنى الاصطلاحي الضيق ، إلا ان هـذا النوع يوفر فهما احسن للاتجاهات الادبية بالخاصة ؛ على اية حال فقد اضطرني ضيق المجال الى الاقتصار على الأفياء الاكثر اهمية لاشتراكية القرن التاسع عشر الخيالية وعلى التأثيرات الاساسية التي حددت تطورها .

وكما يشير انجلز في جدله مع دوهرنغ [٣] فان اشتراكيـــة القرن التاسع عشر تبدو للنظر الاولى مجرد تطور لاحق للنتائج التي وصلت اليها فلسفة القرن الثامن عشر التنويرية . وسوف استشهـد كتوضيح بحقيقة ان النظريين الاشتراكيين لهـــذه الفترة المعتبرة ما كانوا ينفرون في حـال من الاحوال من اللجوء الى « القانون الطبيعي [٤] » الذي احتل مكانا بارزا في تفكير جماعـــة الانوار الفرنسيين . ولاشك في ان الاشتراكيين وافقوا دون تحفظ على

الموقف الفلسفي تجاه الانسان الذي حددته جماعة الانوار بشكل عام ، ولامتري وهولباخ وديدرو وهلفتيوس في فرانسا ودافيد هارتلي وجوزيف برستلي في بريطانيا بشكل خاص . وهكذا ينطلق وليام غودوين (١٧٥٦-١٨٣٦) في الفرضية المادية بأن كل مناقب ومثالب الانسان تقررها الظروف التي يشكل حاصل مجموعها تاريخ حياته . وبالتالي فقد استنتج غودوين امكانية محو الرذيلة من العالم اذا ما اعطي الحاصل المشار اليه اعلاه الصفة المناسبة ولم يبق لديه الا ان يقرر ماهي التدابير التي تمكن من استحضار الصفة الضرورية في حاصل الظروف المشار اليه اعلاه ، وهي بالضبط المشكلة التي عالجها في كتابه الرئيسي « بحث في العدالة السياسية وتأثيرها على السعادة والفضيلة العامتين » الذي ظهر في ١٧٩٣ . وان النتائج التي توصل اليها غودوين قريبة جدا الى مايسمى الآن بالشيوعية الفوضوية . وفي هذا المجال فان العديد من اشتراكيي القرن التاسع عشر كانوا على تباين كبير معه ، الا انهم وافقوه جميعا على الانطلاق من نظرية تكوين الخلق الانساني التي تعلمها هو من الماديين .

ذلك كان التأثير النظري الاكثر اهمية الذي وفر الاساس للتعاليم الاشتراكية للقرن التاسع عشر . وكانت اعظم التأثيرات

العلمية جزما هي تأثيرات الثورة الصناعية في انكلترا في نهاية القرن الثامل عشر ، والانقلاب السياسي الـذي عرف بالثورة الفرنسية العظمى ، وبشكل خاص عهدهـا الارهابي . ومن الواضح ان تأثير الثورة الصناعية ظهر بشكل اعظم في انكلترا وتأثير الثورة العظمى في فرانسا .

الاشتراكية الخيالية الانكليزية

- ١ -

لقد اعطيت المكان الاول لانكلترا لأنها كانت اول قطر اجتاز الثورة الصناعية التي حددت لأمد طويل التاريخ الداخلي التالي للمجتمعات المتمدنة . لقد اتسمت تلك الثورة بالتطور السريع للانتاج الآلي ، الذي اثر في علاقات الانتاج ، بمعنى ان المنتجين المستقلين اصبحوا عمالا بالأجرة يستخدمون في مشاريع كبيرة أو صغيرة ، تحت سيطرة الرأسماليين ولفائدتهم . ان هذا التغيير في علاقات الانتاج جلب للسكان العمال في انكلترا شقاء اكثر مرارة وديمومة ، ثم تفاقمت هذه النتائج الضارة فيما بعد بفعل مايدعى «بالحظائر» التي صاحبها احتلال الزراعة الواسعة النطاق مكان الملكيات الصغيرة . وسوف يتحقق القارىء من ان تلك «الحظائر» يعني تملك الأراضي العامة من قبل كبار الاقطاعيين و « توطيد » الملكيات الصغيرة في مزارع واسعة ، كان لابد ان تحمل جزءا لا يستهان به من السكان الريفيين على ترك الارض والذهاب للمراكز الصناعية ومن الواضح ايضاً ان الريفيين الذي طردوا من ارضهم قد زادوا من عدد « الايدي العاملة » المتوفرة في سوق العمل ، مما

أدى الى تدني الاجور ولم يسبق للتسول ان بلغ في انكلترا تلك النسبة الخطيرة، كما حصل خلال الفترة التي تلت «الثورة الصناعية» مباشرة لقد كانت نسبه الفقراء ٥ بالمئـة في عام ١٧٨٤ فارتفعت في عام ١٨١٨ الى ١٣/٣ . لقد كان العمال الذين يعاونون الفقر في انكلترا في حالة قلق مستمر : فالعمال الزراعيون كانوا يضرمون النار في المزارع بينما كان العمال الصناعيون يحطمون الآلات . تلك كانت الخطوات الاولية وغير الواعية بعد في طريق الاحتجاج التي قام بها المستثمرون ضد المستثمرين . ان قطاعا صغيرا فقط من الطبقة العاملة قد حقق في مطلع هذه المرحلة درجة من التطور العقلي تمكن الطبقة العاملة من القيام بنضال واع من اجل مستقبل افضل . وقد وقع هذا القطاع تحت تأثير النظريات السياسية الجذرية وكان يتعاطف مع الثوريين الفرنسيين . وقد قامت منذ عام ١٧٩٢ « جمعيـــة المراسلة اللندنية »[٥] التي كانت تضم من اعضائها عددا من العمال والصناع وصغار التجار ، وقد قلد اعضاء هـذه الجمعيـة الخطوات العملية لفرنسا الثورية ، فـكانوا يتخاطبون بكلمـــة « مواطن » واظهروا مزاجا ثوريا عاليا ، وخصوصا بعد اعدام لويس السادس عشر . ومهما كانت الفئة الديمقراطية القادرة على الانجراف مـــع افـكار العصور التقدمية صغيرة ، فان عقليتها الخطرة ارعبت بشددة الدوائر الحاكمة التي كانت تتبع بخوف مجرى الاحداث في فرنسا .

لقد اتخذت الحكومة الانكليزية العديد من التدابير الزجرية ضد الجذوة المحلية للبعاقبة ، وهي تهدف الى قمع حرية الكلام والنقابات والاجتماع . وفي الوقت نفسه شعر ايديولوجيو الطبقة العالية بانه من المحتم عليهم ان يساندوا تدابير البوليس الوقائية بتوجيه «السلاح الروحي» ضد الثوريين . وقد كان بحث مالتوس في قانون السكان اثرا كتابيا مثيرا يشكل جوابا على كتاب غودوين المشار اليه آنفا عن « العدالة السياسية » . فبينما ألقى غودوين كل المشاكل البشرية على باب الحكومات والمؤسسات الاجتماعية ، حاول مالتوس ان يثبت انها غير مسببة عن الحكومات أو المؤسسات وانما عن قانون صارم للطبيعة (٦) ينص على ان السكان يتكاثرون بأسرع مما تتكاثر وسائل العيش .

وفيما كان للثورة الصناعية في انكلترا مثل هذه النتائج الخطيرة على ظروف الطبقة العاملة ، فقد كانت تعني ايضا تطورا هائلا في قوى البلاد المنتجة ولقد استأثرت الحقيقة بانتباه سائر الباحثين واعطت العديد منهم الفرصة للتأكيد بأن آلام الطبقة العاملة ذات صفة عابرة لان الاشياء على العموم تتطور على افضل وجه . ولم يشارك الجميع على اية حال في هذه النظرة التفاؤلية ، اذ كان ثمة اناس عاجزين عند النظر بمثل هذا الهدوء « الاولمبي » الى آلام الآخرين . وان اكثر هؤلاء الناس جرأة واعمقهم تفكيرا هم الذين

أبـــدعوا ادب انكلترا الاشتراكي في النصف الاول من القرن الماضي ☆ .

في عام ١٨٠٥ نشر الدكتور تشارلز هال (١٧٤٥-١٨٢٥) بحثا في نتائج « الحضارة » - مايعنيه هال بالحضارة هو تزايد قوى الانتاج في الاقطار المتحضرة - على ظروف الجماهير الكادحـــة . وبرهن هال في هذا المؤلف ان الجماهير تزداد فقرا نتيجة «الحضارة» وقد كتب يقول « ان الثروة او السلطة المتزايدة للبعض هي السبب في تزايد فقر الآخرين وخضوعهم » .

ان لهذا التأكيد اهمية عظيمة في تاريخ النظرية ، لانه يرينا، في شخص تشارلز هال ، كيف ان الاشتراكية الانكليزية قد تحققت بوضوح من ان مصالح الطبقات « الضعيفة » و « الفقيرة » هي في تعارض متبادل . وتجب الاشارة الى ان هال يعني بالطبقة «الفقيرة» تلك الطبقة من الشعب التي تعيش من بيع «عملها» يعني البروليتارين ، بينما يعني بالطبقة « الغنية » الرأسماليين والاقطـاعيين الذين يبنون رفاهيتهم على الاستثمار الاقتصادي للطبقة « الفقيرة » .

ومادامت الطبقة « الغنية » تعيش على استثمار الطبقة «الفقيرة»

☆ ادت «الحظائر» الى قيام ادب كامل حول القضية الزراعية ولقد كان هذا الادب أعني كتابات توماس سبنس ، ووليم اوغليفي وتوماس بين بارزا على طريقته الخاصة ، وعمل الكثير لتشجيع تطور النظرية الاشتراكية في انكلترا وعلى اية حال فانا لا استطيع ان اعالج هذا الادب مادام يخص القرن الثامن عشر ، وبالتالي فانه يقع ، تاريخيا ، خارج نطاق موضوعي.

فان مصالح هاتين الطبقتين تتعارض مباشرة . ويتضمن كتاب هال فصلا (الفصل الرابع) عنوانه « في المصالح المتباينة للطبقتين الغنية والفقيرة » وهنا يمكننا ان نلخص خط المناقشة التي اثارها المؤلف كما يلي :

ان كل رجل غني يجب ان يعتبر بوصفه **شاري العمل** وكل رجل فقير بوصفه **بائع العمل** . وان من مصلحة الغني ان يحصل على اكبر كمية من عمل الفقير وان يعطيه مقابل عمله اقل كمية ممكنة . وبكلام آخر فهو يريد الحصول على اكبر جزء ممكن من الانتاج الذي يخلقه عمل الشغيل . ومن جهة اخرى فان العامل يكافح للحصول على اكبر قدر يمكنه الحصول عليه من ذلك الانتاج . ومن هنا كان النضال بينهما ، الا انه نضال غير متكافيء . وبدون وسائل المعيشة فان العمال يغلبون على امرهم عادة مثلما تضطر حامية القلعة التي نفدت مؤونتها الى الاستسلام . فيما عدا ذلك فانه يجب ان نتذكر ان اضرابات العمال تقمع غالبا بالقوى المسلحة بينما قليلة جدا هي الاقطار التي سنت قوانين تمنع الاسياد من الاتفاق على هدف تخفيض الاجور .

ولقد قارن هال ظروف العامل الزراعي مع ظروف حيوانات الجر واذا كان ثمة أي اختلاف بين هذين النوعين في الظروف فهو ليس في مصلحة العامل اذن ، لأن موت ثور او حصان يشكل خسارة للمالك ، بينما هو لا يفقد شيئا عندما يموت عامله . لقد كان

الاسياد عازمين على الحفاظ على ثروتهم وامتيازاتهم في نضالهم - ضد مستخدميهم لان بؤسهم حرمهم القوة الاقتصادية والاخلاقية للمقاومة وفيما عدا ذلك فان هؤلاء المستخدمين يملكون الى جانبهم قوة القانون الذي يعاقب دون شفقة اي تطاول على حقوق الملكية ☆ . وبالنظر الى كل هذا ، قامت مسألة الحصة التي تعود الى الطبقة العاملة بمجموعها من الدخل القومي السنوي . وقد احصى هال ان هذه الطبقة تستلم ثمن القيم التي يخلقها عملها اما الاثمان السبعة الباقية فانها تذهب الى « الاسياد ».

وبالطبع لايمكن اعتبار هذه النتيجة مضبوطة، لان هال انقص في تقديره حصة العمال من الدخل القومي . وعلى اي حال فسوف يدرك القارىء انه لاتوجد في الوقت الحاضر ادنى ضرورة لعرض خطأ مؤلفنا . بل لابد على العكس من ذلك من الاشارة الى الواقع التالي ، الا وهو ان المؤلف يملك بالرغم من هذا الخطأ الكمي فهما جيدا للطبيعة الاقتصادية لاستثمار الرأسمالية للعمل المأجور.

وان الجريمة لتأتي في اعقاب البؤس . وبكلمات هال « انا لايمكنني الا ان اعتبر ان مايدعى الفساد والاساس والمزاج الشرير هو بمجموعه ، او تقريبا بمجموعه ، من نتائج نظام الحضارة ، وبالخاصة تلك الصفة البارزة منه ، الا وهي عدم المساواة الكبرى

☆ تجب الاشارة هنا الى انه في ذلك الوقت كانت اضرابات العمال يعاقب عليها بحكم قانون الجنايات البريطاني.

في الملكية » . ان الحضارة تفسد الفقراء بفعل الحرمان المـــادي وتخلق في « اسيادهم » شرورا خاصة بالاغنياء ، وفي المكان الاول اردأ الشرور على الاخلاق : الاستعداد لاضطهاد رجاله الخاصين . وذلك هو السبب في ان الاخلاق الاجتماعية سوف تربح كثيرا من جراء القضاء على عدم المساواة في تملك الملكية .. هل يمكن القضاء على عدم المساواة هذه ؟ . يعتقد هال ان ذلك ممكن ويقتبس ثلاثـــة امثلة تاريخية عن المساواة في الملكية التي تحققت : اولا ـ بـــين اليهود. ثانيا ـ بـــين الاسبارطيـــين . ثالثا ـ في البـــاراغوي تحت حكومة اليسوعيين ، في هذه الحالات جميعا ، بقـدر مانعلم ، كانت المساواة على درجة عظيمة من النجاح » .

وعندما نصل الى مشكلة كيف نقضي على عـدم المساواة في الملكية فان هال يحث على اعظم الحذر ، وليس الحذر فقط . انـه يعتقد ان الاصلاح يجب ان يقوم به الناس الذين لايملكون مصلحة خاصة فيه . ولاتجرفهم العواطف . مثل هؤلاء النـاس لايمكن ان نجدهم بين المضطهدين الذين سوف يتعجلون الأمر كثيرا . انه يكون من الافضل التوجه الى الاغنياء . لانه حـين لانتأثر نحن بالاشياء بل اولئك الغرباء عنا ، فلن نكون اذن في عجلة كبيرة من أمرنا كي نحقق مطالب العدالة ، مهما كان اعتبارنا عظيما . « يكون من الافضل اذن ان يصدر تصحيح ظلامات الفقراء عن الاغنياء انفسهم » وبكلمات اخرى ، فالسلام الاجتماعي يتطلب ان يوضع حد لعدم المساواة في

الملكية بالضبط من قبل اولئك الذين يتمتعون بكل ماتوفره من امتيازات . ولم تكن هذه النظرة مميزة لهال فحسب : ان الغالبية العظمى من الاشتراكيين الذين عاشوا في تلك الفترة ، ليس في بريطانيا فحسب وانما في القارة ايضا ، كانوا يملكون وجهة النظر نفسها في هذا الموضوع . وفي هذا المجال يقف روبرت اوين ، اعظم الاشتراكيين الخياليين الانكليز ، قريباً جداً من هال .

- ٢ -

منذ بداية عام ١٨٠٠ ، كان اوين يملك مصنعا كبيرا للنسيج في نيولاناك في اسكوتلاندا . وكان « الفقراء » العاملون في ذلك المصنع ، وهم يشتغلون ساعات طويلة لقاء اجر زهيد ، ويفرطون في السكر ، وغالبا مايعتقلون لاختلاساتهم . وكانوا على العموم في مستوى منخفض جدا من التطور العقلي والاخلاقي . وعندما تسلم أوين « مصنع نيولانارك » ابتدأ بتحسين ظروف العمال حالا ، فانقص ساعات العمل الى عشر ساعات ونصف الساعة . وعندما توقف المصنع لنقص المواد الاولية لم يسرح « الفقراء » كما كانت العادة ، ولا تزال ، في كل « الورطات » او الأزمات التي تندلع ، بل استمر يدفع لهم كامل اجورهم لاشهر عديدة ، وقد اولى اهتماما كبيرا لتنشئة الاطفال وتثقيفهم فكان اول من نظم حدائق حضانة الاطفال في انكلترا . واثر هذا المجهود نتائج رائعة في مختلف الوجهات ، وادى الى تحسن ملموس في معنويات العمال ،

لأن الشعور بكرامتهم الانسانية قد استيقظ فيهم . وفي الوقت نفسه فان مكاسب المصنع تزايدت بشكل معتبر . ان كل هذا ـ اذا اخذ في مجمله ـ جعل نيولانارك على درجة عظمى من الجاذبية بالنسبة الى اولئك الذين كانوا ـ مع امتلائهم بلبن الشفقة الانسانية ـ لاينفرون من التقتير على الاغنام بينما يصونون الذئاب من الجوع. واكتسب اوين شهرة كمحسن خيري ، وكان اناس كثيرون حتى من أعلى المراتب يزورون نيولانارك ليعبروا عن اعجابهم بالطريقة التي يعنى بها بامر هناءة « الفقراء » وعلى اية حال ، فلم يكن اوين راضيا مطلقا عما استطاع ان يحققه في نيولانارك . وكان يقول بحق ان عماله رغم انهم في حالة جيدة نسبيا ، لايزالون عبيدا له . وشيئا فشيئا تطور هذا المحسن ، الذي نال المديح على احسانه لعماله حتى من اقسى الرجعيين ، الى مصلح اجتماعي أرعب «تطرفه» كل الاناس «المحترمين» في المملكة المتحدة .

وكان اوين ، مثل هال ، يعجب للتناقض الذي يجعل نمو القوى المنتجة في بريطانيا يؤدي الى افقار نفس اولئك الناس الذي يحققونه ويقول اوين « ان العالم مشبع بالثروة في الوقت الحاضر وثمة اساليب لاحصر لها لزيادتها اكثر فاكثر ، ومع هذا فالبؤس يتكاثر ، تلك هي في هذا الوقت الحالة الفعلية للمجتمع البشري» . ان باستطاعته ان يصبح غنيا ، سعيدا ، ومستنيراً ، ولكنه مازال يتثاقل في الجهل ومعظم اعضائه يعيشون في بؤس مرعب ونصف مجاعة يجب ان لايبقى على هذه الحالة ، والحاجة تدعو الى تغيير نحو الافضل. والتغيير

سوف يكون سهلاجدا. «ان العالم يعرف ويحس الشر القائم : أنه سوف ينظر لواقع الاشياء الجديد المقترح ، ويوافق على التغيير ويريده ، فاذا هو يتحقق » .

ولكي يوافق العالم على الاصلاح المقترح ، يجب ان يتعلم اولا ، ماهو الانسان بطبيعته ، وإلام صـــار تحت ضغط محيطه ، وإلام يستطيع ان يصير في شروط جديدة تخلق متفقة مع متطلبات العقل. وحسب تعبير اوين : يجب ان يولد عقل الانســـان ثانية قبل ان يكون حكيما وسعيداً . ولكي يشجع اوين ولادة العقل الجديدة، فقد كتب مقالاته المشهورة عن تكوين الخلق الانساني ☆

كان اوين مقتعاً ، مثل غودوين ، ان خلق الانسان يقرره محيطه الاجتماعي ، المستقل كل الاستقلال عن ارادته . وانه يكتسب من هذا المحيط الآراء والعادات التي تجعله يسلك هذا السلوك او ذاك وهذا هو السبب في ان سكان اي قطر ، او حتى سكان العالم كله ، يمكن ان يتحلوا بواسطة التدابير المناسبة بأي خلق ابتداء من أسوئها الى اروعها . ان الطرق الضرورية هي في حـوزة الحكومات التي تستطيع ان تخلق اوضاعاً يمكن للناس ان يعيشوا فيها دون معرفة البؤس والجريمة والعقاب . وهي جميعاً نتيجـة سوء التثقيف وسوء الحكم . وما دام هدف الحكومة هو ان تجعل الحـكام والمحكومين

☆ العنوان الكامل هو : « نظرة جديـدة في المجتمع ، او مقالات عن مبدأ تكوين الخلق الانساني وتطبيق هذا المبدأ في الممارسة » .

سعداء فان على اولئك الذين يديرون السلطة السياسية ان يتوجهوا حالا نحو اصلاح البناء الاجتماعي .

ان الخطوة الاولى نحو هذا الاصلاح ، هي ان يكون معلوما لدى الجميع ، على اختلافهم ، انه لن يصار الى انتزاع ملكية اي شخص من افراد هذا الجيل الحاضر ، ويجب ان يتبع ذلك اعلان حرية التفكير والغاء كل المؤسسات التي لها تأثير سيء على الاخلاق العامة واعادة النظر بالقوانين المتعلقة بالفقراء ، وأخيراً - وهو الاهم - اتخاذ سلسلة من الاجراءات المستهدفة تنوير الشعب وتثقيفه .

« على كل دولة تريد ان تحكم حكما صحيحاً ، ان توجه انتباهها الرئيسي الى تكوين الخلق ... وإن أفضل الدول حكما هي التي تمتلك افضل نظام وطني للثقافة » . إن نظام الثقافة هذا يجب ان يكون على نسق واحد للدولة كلها .

وتكاد كل كتابات اوين اللاحقة وكل ماقام به من تحريض ، ان تكون موجهة نحو المزيد من تطور النظريات التي اوردتها تواً ، وللدفاع العلني عنها بكل حمية . وهكذا ، بعد ان يعلن اوين ان خلق الانسان مشروط بمحيطه فانه يثير الموضوع التالي ، الا وهو حتى اية درجة تفعل الظروف المحيطة بالعامل الانكليزي ، في ذلك الزمان ، منذ طفولته ، في مصلحته . وما دام مطلعاً على حياة الطبقة العاملة ، ولو عن طريق ملاحظاته في نيو لانارك فقط ، فقد كان

الجواب الوحيد الذي يستطيع ان يعطيه على المسألة هو ان اثر تلك الظروف التى سماها ، قد كانت مضادة تماما . وحسب تعتبره، فان الانتشار التدريجي للمانيفاكتورات في بلد ما يعمـــل على افساد خلق سكانه ، وهذا التغير الى الأسوأ بجعلهم بائسين . ان مثل هذا الشر الاخلاقي يبعث على عظيم الاسى ولكنـــه يبقى محتدما حتى يعاكس بالتشريع . وفوق ذلك ، فان النضال لايتحمل تأخيرا . فاذا كانت ظروف العمال في ذلك الوقت اسوأ منها قبلا بما لايقاس ، فانهم سينحطون اكثر واكثر مع مرور الزمن . لقد كان من المحتمـل جدا ان صادرات انكلترا من البضائع الصناعية قد وصلت ارتفاعها الاعظم ، وان منافسة الدول الاخرى سوف تؤدي الى هبوط في صادرات انكلترا ، الأمر الذي سيكون له تأثير ضار جـدا على ظروف الطبقة العاملة .

لقد أراد اوين من البرلمان أن يصدر قانونا ينص على تحديـد ساعات العمل في المصانع الآلية بعشر ساعات ونصف الساعـــة ، ويحرم استخدام الأولاد دون سن العاشرة من عمرهم ، والاميين حتى الذين هم فوق العاشرة ، ولقد انتهى ذلك بوضوح تام الى طلب اصدار « قوانين المصنع » وهو الطلب الذي قدمه اوين « باســـم ملايين الفقراء المهملين » والذي قوبل جزئيا بقرار

من البرلمان في عام ١٨١٩ (٧). ومما يدعو الى الاسف ان هذا القرار ، الذي قابل مطالب أوين بشكل شحيح ، كان في الحقيقة وثيقة ميتة ، الا ان البرلمان لم يتخذ اية خطوات عملية لتنفيذه. إن السلطات المكلفة بمراقبة المصانع شهدت فيما بعد « بأن المراهقين والاولاد كانوا قبل قرار عام ١٨٣٩ يعملون كل الليل، أو كل النهار ؛ أو تلهما اذا شئت » .

والى جانب المطالبة بتشريع خاص بالمعامل ، كان أوين يريد ، كما هو معروف ، ان يعدل قانون الفقراء ، وان تنظم قرى خاصة للعاطلين ، حيث يكون باستطاعة السكان ان يقوموا بالحرف الزراعية والصناعية . وقد علق اوين أملا عظيماً على « قرى الاتحاد والتعاون المتبادل » هذه ، لانه كان يعتقد ان خطوات جدية يمكن ان تتخذ هناك من اجل اعطاء الشغيلة ثقافة لائقة وتاقينهم نظرة معقولة عن الحياة . ومادام يعتقد ان مثل هذه « القرى » يمكن ان تزدهر بسهولة ، فقد كان على ثقة بأنها ستكون الخطوة الاولى نحو تنظيم اجتماعي لايعرف « اغنياء » ولا « فقراء » ، ولا « أسياداً » ولا « عبيداً » . وقد اقترح ان يؤمم المجتمع الفقراء على أساس ان نظام الثقافة ، طبقاً لمشروعه الاصلي وكما اشرت سابقاً في مناقشتي لمحتويات مقالاته عن بناء الخلق الانساني ، سوف يكون موحداً في كل البلاد .

ولقد وضع اوين منذ عام ١٨١٧ قائمة مفصلة بكل المصاريف

اللازمة لخلق « قرى الاتحاد والتعاون المتبادل » . انه يكون من نافل القول الآن ان نضيف ان الحكام لم يولوا أي اهتمام لوضع مشاريعه موضع التطبيق . صحيح انهم عدلوا قانون الفقراء في عام ١٨٣٤ ، ولكن ليس في الاتجاه الذي اشار اليه صاحبنا المصلح . وعوضاً عن « قرى الاتحاد والتعاون المتبادل » ، ارسل اولئك الذين كانوا في حاجة الى العون في المجتمع الى بيوتات العمل التي كانت سجوناً في كل شيء الا ماعدا الاسم .

وبالرغم من فشله في دفع « الحكام » الى اقامة الاصلاح الاجتماعي ، فان اوين لم يفقد الايمان في ارادتهم الطيبة ، الا أنه شعر ان من واجبه ان يتابع اهدافه العزيزة بوسائطه الخاصة ومساعدة اولئك الذين يشاركونه آراءه . لذلك أخذ على عاتقه تأسيس المستعمرات الشيوعية في المملكة المتحدة واميركا الشمالية . وان هذه المحاولات لخلق المثل الاعلى الشيوعي داخل الاطار الضيق لمؤسسة وحيدة قد انتهت الى الفشل وقضت على أوين تقريباً. ولقد كشف هو نفسه عن السبب الرئيسي من الأسباب العديدة التي أدت الى فشله عندما قال بانه لابد لاجل نجاح مثل هذه المشاريع أن يتمتع المشاركون فيها ببعض الصفات الاخلاقية التي هم لايملكونها دائماً بسبب التاثير المفسد للمحيط الاجتماعي على الخلق الانساني . وهكذا تبين أن المستعمرات الشيوعية كانت مهيأة لأن تعطي الشعب ثقافة لائقة من ناحية ، بينما مثل هذه الثقافة هي من ناحية أخرى شرط مسبق لنجاح هذه المستعمرات .

هذا التناقض الذي أدى الى انهيار عدد كبير من انبل المقاصد في سياق القرن الماضي ، لايمكن ان يحل الا بواسطة العملية التاريخية لتطور المجتمع ككل ، وهي عملية تكيف تدريجياً خلق الناس مع الظروف الجديدة للوجود ، هذه الظروف التي تنشأ تدريجياً أيضا. وعلى اية حال فان الاشتراكية الخيالية لم تعن الاقليلا بمجرى التطور التاريخي . والحقيقة أن أوين كثيراً ماقال بأن النظام الاجتماعي الجديد يمكن أن يأتي فجأة « مثل اللص في الليل »

(٣)

خاطب أوين في نداء له موجه الى اجتماع شعبي في سنة ١٨١٧ مستمعيه كما يلي : « ياأصدقائي أخبركم أنكم حتى الان قدمنعتم حتى من معرفة ماهي السعادة ، وذلك فقط نتيجة الاخطـــاء ـ الاخطاء الضخمة ـ التي دمجت مع المفهومات الاساسية لكل ديانـة لقنت للبشر حتى الان . وبنتيجة ذلك ، جعلت هذه المفهـومات من الانسان الكائن الاكثر شقاء والاشد حيرة في الوجود . لقـد جعل الانسان بواسطة اخطاء هذه الأنظمة حيواناً أبله وضعيفـاً ، متعصباً ذميماً أو مرائياً بائساً » . لم يسبق لأي انســان آخـر في بريطانيا أن تفوه من قبل بمثل هذه الكلمات التي كانت كافية لاثارة سائر الناس « المحترمين » في البلاد ضد أوين الذي كان ، في الحقيقة ، يرى أن مثل هؤلاء الناس يتحاشونه بوصفه مجدفاً . ولم يقلل ذلك

عن أية حال ، لامن صراحته ولامن ايمانه بالارادة الطيبة للسلطات القائمة .

وفي اكتوبر ١٨٣٠ ألقى محاضرتين عن « الدين النقي » يعطيان فكرة غامضة عن السمات المميزة لتعليم الأديان النقية ، ولكن تشهدان بصورة أوضح كثيراً على الاحتقار العميق الذي يكنه المحاضر « لكل الأديان التي وجدت حتى الان » . وقد دعا في محاضرته الاولى هذه الاديان بأنها السبب الوحيد للتفرقة والكراهية المتبادلة والجريمة التي تشوه الحياة البشرية . وقال في المحاضرة الثانية أنها قلبت العالم إلى بيت هائل للمجانين . ويستطرد فيؤكد الحاجة الملحة لتدابير تكافحها . وكان كل هذا اكثر من كاف ليثير غضب سائر الاسياد « المحترمين » في المملكة المتحدة ، بحيث يمكن ان يلوح أن أوين يجب أن يدرك بأن أحداً من هؤلاء الاسياد لن يوافق على التدابير الموجهة ضد الاديان . وعلى أية حال فقد كان ذلك شيئا لم يشأ أوين أن يدركه .

وصرح في محاضرته الثانية أن أولئك الذين عرفوا الحقيقة ملزمون أخلاقياً بمساعدة الحكومة على وضع هذه الحقيقة موضع التطبيق . لذلك دعا مستمعيه لتقديم عرائض الى الملك ومجلسي النواب يطالبون فيها بالنضال ضد الاديان . وكان مشروع عريضته الى الملك يقول بان هذا الاخير يريد بالتأكيد ان يكون رعاياه سعداء ، ولكن سعادتهم لايمكن ان تتحقق إلا

بابدال الدين غير الطبيعي الذين انشئوا عليه بصورة مؤسفة بدين الحقيقة والطبيعة . واخيراً بان ديناً من هـذا النوع يمكن ان ينتصر بدون اي خطر على المجتمع ، او في اسوأ الاحوال ببعض الازعاج العابر له . ولذلك فان على الملك ان يستخدم مركزه العظيم ليحث وزراءه على تفحص دور الدين في تكوين الخلق الانساني . وكانت عريضته لمجلسي النواب قد قدمت بعبارات مماثلة . وقد وافق الحاضرون على المشروعين ، لكن هذين المشروعين لم يعودا بالتأكيد بأدنى فائدة على قضية اوين .

ان الآراء الدينية التي تطورت على اساس اجتماعي معين لتكرس هذا الاساس ، فأي شخص يهاجم ديناً ما يهز الاساس الاجتماعي لهذا الدين ، وذلك هو السبب في ان اولئك المعنيين بالحفاظ على نظام اجتماعي معين لايبدون تسامحاً البتة في شؤون العقائد الدينية . وانهم لأقل من ذلك ميلا الى تسعير النضال ضد الدين . وذلك مالم يدركه أوين ، الامر الذي يعني انه كان عاجزاً عن الخروج بكل النتائج العملية المتأتية عن تعليمه الخاص بتكوين الخلق الانساني .

واذا كان خلق اي فرد معين تقرره الظروف التي نشأ فيها فانه من الواضح أن خلق أي طبقة اجتماعية معينة تقرره ظروفها أيضاً . فالطبقة التي تعيش على استثمار الطبقات الاخرى تميل الى الدفاع عن الظلم الاجتماعي وليس الى الثورة عليه . وبقدر ما كان

اوين راغباً في اقناع البرجوازية والارستقراطية بادخال الاصلاحات التي تضع حداً لتقسيم المجتمع الى طبقات فقد وقع هو ايضاً – حتى دون ان يلاحظ ذلك – في التناقض نفسه الذي كان عقبة كأداء في وجه فلسفة القرن الثامن عشر المادية . لقد علمت هذه الفلسفة ان الانسان ، بكل آرائه وعاداته ، هو نتاج ظروفه ، وفي الوقت نفسه اكدت ان آراء الناس هي التي تقولب الظروف الاجتماعية وكل خصائصها . « ان الرأي هو الذي يحكم العالم » ، هذا ما كان يؤكده الماديون ، ويوافقهم في ذلك جميع رجال الانوار في القرن الثامن عشر ، وما السبب في لجوئهم الى ملوك اكثر أو أقل استنارة فهو إيمانهم الذي لايتزعزع بقوة « الرأي » . وقد شارك اوين في ذلك الايمان الذي لايتزعزع . ولما كان نصيراً لماديي القرن الثامن عشر فقد كان يكرر معهم ان « الآراء هي التي تحكم العالم » . وقد حاول ، محتذياً بمثالهم ، ان ينور « الحكام » . اما موقفه من الطبقة العاملة فقد كان من دون ريب مسوقاً فيه ، ولفترة طويلة ، بانطباعاته التي تلقاها في نيولانارك . فبينما هو لايوفر جهداً لمساعدة « الفقراء العاملين » ، لم يكن يؤمن بقدرتهم على القيام باي عمل مستقل . ومادام ينقصه الايمان بتلك القدرة ، فانه ما كان يستطيع ان ينصحهم الا باتباع سبيل واحد في الفعل ، ألا وهو ألا يخوضوا أي نضال ضد الاغنياء بل ان يتصرفوا بحيث لايمتنع هؤلاء الاغنياء عن القيام بالاصلاح الاجتماعي . وفي نيسان ١٨١٩ نشر في الصحف نداءه الى الطبقات العاملة ☆ حيث يقرر بأسف أن

☆ ان مقطع « الطبقات العاملة » لايزال يستعمل بدل « الطبقة العاملة » في بريطانيا .

في صفوف الطبقة العاملة كثيراً من عدم الارتياح لظروف الحياة ، ويكرر أن خلق الأنسان تقرره ظروفه الاجتماعيـة . ولهـذه الحقيقة يتوجب على الطبقة العاملة، في رأيه ، أن لاتتهم «الأغنياء» لموقفهم تجاه « الفقراء »، فالأغنياء يتصرفون تحت تأثير قلق واحد، ألا وهو صيانة وضعهم الاجتماعي المتفوق . ويجب على الطبقـة العاملة ان تحترم هذا المسعى . وفوق ذلـك ، إذا كان أصحاب الامتيازات يرغبون في تجميع ثروة أكثر فيجب على الطبقة العاملة ألا تعارض في ذلك . ليس الماضي هو الذي يسترعي الانتباه وانما المستقبل ، أي أن الانتباه يجب أن يركز على الاصلاح الاجتماعي وحده . إن القارىء يمكن أن يسأل : أي تغيرات سوف ينجزها الاصلاح الذي لن يحافظ على اصحاب الامتيازات فحسب ، وانما سيزيدهم غنى أكثر فأكثر . في رأي أوين أن قوى الانتاج الهائلة التي يديرها الجنس البشري ستكافىء العمال على كل التنازلات التي يقدمونها ، وذلك بشرط أن تنظم تلك القوى وتستخدم بشكل مناسب . وكما سيفعل رودبرتوس فيما بعد ، لايلح اوين على تحصيل الطبقة العاملة لكل انتاج عملها ، بل على ألا يكون الجزء العائد إليها صغيراً جداً . وهكذا نرى بأن شيوعيته تسمح بشيء من اللامساواة الاجتماعية ، ولكن هذه اللامساواة سوف تكون تحت رقابة المجتمع ولن تتخطى حدوداً معينة يضعها المجتمع . كان أوين

مقتنعا بأن « الاغنياء والفقراء ، الحكام والمحكومين ، ليس لهم في الحقيقة إلا مصلحة واحدة » . وإلى نهـاية عمره بقي نصيراً مقتنعا للسلم الاجتماعي .

إن أي نضال طبقي هو نضال سياسي . وإنه لمـــن الطبيعي بالنسبة إلى شخص يدين النضال بين الطبقات ألا يعلق أي أهمية على العمل السياسي من قبلها . لذلك لانعجب إذا كان أوين يعارض الاصلاح البرلماني . لقد اعتقد على العموم أن الاقتراع العام أمرغير مرغوب فيه مالم يثقف الناس التثقيف المناسب ، وكان يقف ضد المطامح الديمقراطية والجمهورية لعصره . إذا أوقف الجمهـــوريون والديمقراطيون هجومهم على الحكومات ،عندئذ ـحسب اعتقاده ـ يمكن ان نتوقع تغيراً مفيداً في حكومات العالم .

ولم ينتسب أوين قط للحزب الشارتي الذي كان يناضـل من أجـل المساواة السياسية للعـــمال ، ولكـــن ما دامت الطبقات العليا لم تظهر اية رغبة في تأييد مخططاته في الاصـــلاح الاجتماعي، فقد اضطر قسراً أن يعلق آماله على الحركة العمالية.وفي مطلع العقد الثالث من القرن ، حين كانت تلك الحركة تزداد سعة وقوة ، حاول أوين أن يستخدم قوة البروليتاريا الصاعدة في تحقيق أهدافه العزيزة . ففي أيلول ١٨٣٢ نظم في لندن « سوقـاً عمالية للتبادل المتعادل » وفي الوقت نفسه أقام اتصالات وثيقة مع نقابات العمال . وهنا أيضاً لم تأت النتائج العملية مطابقة لآماله .

ان التبادل المتعادل يعني تبادل المنتجات طبقاً لكمية العمل المبذولة في انتاجها ، وعلى أية حال ، فإذا كان الشيء المنتج لا يسد حاجة اجتماعية ، فلن يوجد من يأخذه ، ويذهب العمل الذي بذله المنتج سدى . ذلك أن المنتجات تتبادل دائماً طبقاً لكمية العمل التي يحتويها كل منها . وبكلام آخر ، لكي تمنع قانون القيمة من ممارسة فعله عن طريق ذبذبات الاسعار المستمرة ، فانه لابد من تنظيم منهج للانتاج . ويجب أن ينظم هذا الانتاج بحيث يوجه عمل كل منتج بشكل واع لمواجهة حاجة اجتماعية معينة . وحتى يتحقق ذلك فان ذبذبات الأسعار شيء لامفر منه ، الأمر الذي يعني أن « التبادل المتعادل » مستحيل أيضاً . وعندما يتحقق ذلك ان تكون حاجة « للتبادل المتعادل »، لأنه في تلك الحالة لن تبادل المنتجات الواحدة بالأخرى ، بل ستوزع بين اعضاء المجتمع طبقاً لقواعد مقررة . إن السوق العمالية للتبادل المتعادل التي نظمها أوين ، بالرغم من فائدتها في المسائل الاقتصادية ، تشهد على الحقيقة التالية ، ألا وهي أن أوين وأنصاره لم يدركوا بعد الفرق بين الانتاج السلعي (غير المنظم) من جهة والانتاج الشيوعي (المنظم) من جهة أخرى .

وقد أقام أوين اتصالاته مع النقابات آملا في مساعدتها إياه ، خلال فترة وجيزة من الزمن ، على تغطية بريطانيا بشبكة من

---

* الى جانب سوق لندن فتح سوق آخر في برمنجهام .

التعاونيات توفر الأساس من أجل البنية الاجتماعية الجديدة . وقد كان متمسكاً على الدوام بذلك الرأي الثابت القائل إن الثورة الاجتماعية تنجز **دون اي نضال** ، بحيث كان يسعى ،وذلك الهدف مقصده ، في أن يحول أداة **الصراع الطبقي** ، والنقابات هي دائماً هذه الاداة حتى درجة تزيد أو تنقص ،إلى أداة للاصلاح الاجتماعي السلمي،ولم يكن ذلك سوى خطة خيالية ، بحيث سرعان ماأدرك أوين أنه لا بد أن يسلك هو والنقابات سبيلين مختلفين . وكانت تلك النقابات،التي كانت تعطف كثيراً على الفكرة التعاونية ، تهيء عندئذ بأقصى طاقتها اضراباً عاماً ، وهو ما لا يمكن تحقيقه في أي مكان بدون الاخلال **بالسلم الاجتماعي** . ☆

وقد لاقى أوين وأتباعه قدراً أكبر جداً من النجاح العملي في مجال جمعيات **المستهلكين** ، ولكن موقفه تجاه هذه الجمعيات كان بارداً بالأحرى طالما أنه يعتبرها أقرب الى « الشركات التجارية » العادية .

لقد عالجت نشاطات أوين بهذا التفصيل لانها تعكس ،بوضوح خاص ، نقاط القوة ونقاط الضعف في الاشتراكية الخيالية . وما

☆ اني لا اعالج في هذا الكتاب سوى تاريخ أفكار معينة وليس تاريخ حركة اجتماعية ، ولكني سأشير بصورة عامة إلى أنه خلال الفترة التي كان فيها أوين قريباً للنقابات كان العديد جداً من العمال الانكليز يميلون الى الطرق العملية في خوض غمار النضال الطبقي ، وهي الطرق التي تذكرنا حتى درجة بعيدة بالطرق العزيزة جداً على قلوب النقابيين « الثوريين» الحاليين (٨) .

دمت قد أشرت إلى تلك النقاط هنا فسوف أكون قاردا على أن أقتصر على استشهادات مختصرة في سياق بحثي .

يعتقد بعض دارسي هذه القضية أن تأثير أوين لم يكن مجديا بالنسبة إلى الحركة العمالية الانكليزية . وذلك خطأهائل وغريب ولايغتفر . لقد حث أوين ـ وهو الداعية لأفكاره الذي لايعرف الكلل ـ الطبقة العاملة على التفكير ، مواجهاً هذه الطبقة بأهم قضايا بنية المجتمع وأكثرها جوهرية ، ومزوداً اياها بالعديد من المعطيات اللازمة من أجل حل صحيح لهذه القضايا ، وذلك بصورة نظرية على أقل تقدير . واذا كانت نشاطاته العملية تحمل على الاغلب سمة خيالية ، فيجب الاعتراف أنه أعطى معاصريه في هذا المجال أيضاً بعض الدروس المفيدة جداً . لقد كان أوين المؤسس الحقيقي للحركة التعاونية في بريطانيا ، ولم يكن في مطالبته بتشريع المعامل طوباوياً على الاطلاق ، و كذلك لم يكن ثمة شيء طوباوي في تشديده على ضرورة التعليم الابتدائي على الأقل للاطفال واليفعان الذين يستخدمون كأيد عاملة . ولا ريب أنه كان مخطئاً حين أدار ظهره للسياسة فأدان النضال الطبقي ، ولكن العمال ـ وهذه حقيقة مرموقة ـ الذين تأثروا بتعاليمه قد استطاعوا أن يصححوا أخطاءه . وإذ تعلموا أفكار أوين التعاونية وأفكاره الشيوعية حتى قدر ما ، فقد لعبوا في الوقت نفسه دوراً فعالاً في الحركة السياسية للبروليتاريا البريطانية في ذلك العصر . وأخيراً كان ذلك على الاقل

هو الخط الذى سار عليه اكثرهم موهبة أمثال : لوفيت وهيـثر نغتون وواتسون وغيرهم .

ويمكن ان نضيف هنا أن أوين ، بتبشيره الجـريء « بالدين الحقيقي » وبالعلاقات المعقولة بين الجنسين ، قد ساعدعلى تطوروعي الطبقة العاملة في أكثر من المجال الاجتماعي وحده .

وإلى جانب بريطانيا العظمى وايرلاندا ، ظهـر نفـوذ أوين المباشر في الولايات المتحدة الأميركية أيضاً .

— ٤ —

إذا صدقنا البروفيسور هـ .س فوكسويل الاستاذ في جامعة كامبردج ، الذي كان شديد العداء للاشتراكية ، فإن ريكاردو ـ وليس أوين ـ هو الذي زودالاشتراكيـة الانكليزيةبالأسلحة الفكرية الأشد مضاء . وصحيح أن انجلز قد أشار ، بحق ، الىأن جميع نظريات الاشتراكية المعاصرة، دون استثناء تقريباً ، ترتبط ، بقدر ما تشتق من الاقتصاد السياسـي البرجـوازي ، بنظريـة ريكاردو عن القيمة . لقد كان هناك سبب كاف تماماً لذلك . ومما لاجدال فيه ، على أية حال ، أن كثيراً من الاشتراكيين الانكليز الذين بنيت تعاليمهم على نظرية ريكاردو في القيمة قد كانـوا من تلاميذ أوين،وقد التفتوا الى الاقتصاد السياسي البرجوازي رغبة منهم في استخدام استنتاجاته لكي يذهبوا قدماً في الاتجاه الـذي

كان فكر معلمهم يعمل فيه . أما أولئك الذين لايمكن أن يسموا تلامذة لأوين ، فقد كانوا ،بشكل جلي ، على اتصال فكري وثيق بغودوين الشيوعي الفوضوي ، وقد التفتوا إلى ريكاردو فقط بقصد كشف التناقض ـ في شخصه ـ بين الاقتصاد السياسي وعقائده الخاصة (والأساسية) . ومن بين أتباع أوين سأذكر وليم تومبسون أولا .

يثير تومبسون في مقدمة كتابه « بحث » مسالة السبب في ان شعبا يتفوق على سائر الشعوب في احتياطيه في المواد الخام ، والآلات ، والمساكن ، والمؤن الغذائية المتوفرة له ، كما يتفوق في عدد العمال الصناعيين المنتسبين اليه ، يعاني مع ذلك صعوبة جمة . وتلك مسألة اجتذبت ـ كما رأيناسابقا ـ انتباه أوين منذ السنوات الاولى للقرن التاسع عشر ، وقد صاغها بشكل محدد في بعض كتبه المطبوعة . ويبدي تومبسون عجبه بعدئذ لأن ثمرة عمل العمال يؤخذ منهم بطريقة غامضة وبدون أن يكون لهم ذنب في ذلك . وتلك قضية نصادفها في كل كتابات أوين تقريبا . ولكن تومبسون نفسه يوافق على أن القضايا التى من هذا النوع هي بالضبط التى تثير «فينا» الاهتمام في أمر توزيع الثروة . وهكذا ، فاذا كان تومبسون يتوجه الى ريكاردو ـ وهذا مافعله حقا ويستعير منه الشيء الكثير اثناء ذلك ـ فقد كان ذلك نتيجة تأثره السابق بأوين . ومما لاريب فيه ان ريكاردو كان اكثر تعمقا في الاقتصاد السياسي مما بلغه أوين في يوم من الايام ، ولكن الزاوية التي عالج تومبسون

منها قضايا الاقتصاد السياسي تختلف تماما عن زاوية ريكاردو الذي اكد وحاول أن يبرهن على أن العمل هو المصدر الوحيد لقيمة البضاعة ، الا أنه كان متكيفاً كل التكيف مع الشرط البائس والمنحط للشعب الكادح في المجتمع البرجوازي ، وهو مالم يستطع تومبسون أن يتكيف معه قط . لقد كان يريد أن يكف توزيع البضائع عن مناقضة القانون الاساسي لانتاجها ، وبكلام آخر فقد كان يطالب بأن تعود كل قيمة منتجة من العمل الى الشعب الكادح . واذ صاغ هذا المطلب ، فقد كان يتبع خطوات أوين .

ان كل الاشتراكيين الانجليز الذين اعتمدوا على نظرية ريكاردو الاقتصادية قد قدموا مطلبا مماثلا بصورة مطلقة . ان المؤلف الرئيسي لريكاردو ☆ قد صدر في عام ١٨١٧ ، وفي عام ١٨٢١ نشر كراس صغير مغفل من التوقيع على شكل رسالة مفتوحة الى اللورد جون روسل ☆☆ انتقد فيه المجتمع البرجوازي لأنه مبني على استثمار العمال . ويتبع هذا سلسلة من الكتابات الاخرى ، البارزة على طريقتها الخاصة ، إلا أن هذه الكتابات لم تكن صادرة كلها من أتباع أوين ، فبعضها كتب من قبل مؤلفين يميلون — كثيراً أو قليلا — الى الفوضوية . ولسوف أذكر بالاضافة الى تومبسون اثنين من أتباع أوين هما جون غراي و ج.ف.براي ، كما سأذكر من بين الكتاب

☆ عنوانه « مبادىء الاقتصاد السياسي وجباية الضرائب »

☆ جون روسل (١٧٩٢ — ١٨٧٨) أحد رجال الدولة البريطانيين (المترجم)

الذين يميلون بصورة تزيد او تنقص الى الفوضوية برسي رافنستون وتوماس هودسكين .

لقد ظل هؤلاء الكتاب جميعا في طي النسيان لفترة مديدة من الزمن حتى اذا بعثت ذكراهم – جزئياً بفضل ماركس الذي اشار اليهم في جداله مع برودون – زعم ان مؤلفاتهم هي المنبع الذي استقى منه كارل ماركس نظريته في الانتاج الزائد والقيمة الزائدة . بل ان الأخوين ديبز ذهبا أبعد من ذلك فتحدثا عن كارل ماركس، «التلميذ العظيم لهودسكين» . ولا ينطبق هذا التأكيد على حقيقة الحال . صحيح أن المرء يصادف في الكتابات الاقتصادية للاشتراكيين الانكليز ، لا النظرية الخاصة باستثمار العمل من قبل الرأسمال فحسب ، بل حتى بعض التعابير مثل « الانتاج الزائد » و « القيمة الزائدة » و « القيمة الاضافية » . وعلى أية حال ، فان جوهر الموضوع يكمن في المفاهيم العلمية ، وليس في الكلمات . وبالنسبة لما سبق ، فان أي امرىء مطلع وغير متحيز لابد أن يوافق على أن هو ودسكين هو دون ماركس في مكانته ، بقدر ما كان رودبرتوس دون ماركس هو الآخر . وان هناك أساساً للاعتقاد بانه لن يمر وقت طويل قبل أن يكف بعضهم عن تسمية ماركس تلميذ الاشتراكيين الانجليز في

العقد الثاني من القرن الماضي ☆ . وعلى أية حال يكفي مناقشة هذه النقطة . ومع ان ماركس لم يكن قط « تلميذاً » لهودسكين أو تومبسون أو غراي ، فانه من الأهمية بمكان عظيم بالنسبة لتاريخ النظرية الاشتراكية أن هؤلاء الاشتراكيين قد حققوا نظرة عميقة في نظرية الاقتصاد السياسي ، هي مرموقة بالنسبة الى ذلك العصر ؛ وقاموا أيضاً – كما أشار ماركس – بخطوة هامة الى الأمام بالمقارنة مع ريكاردو . وفي هذا المجال كانوا متقدمين كثيراً على الاشتراكيين الخياليين في فرانسا وألمانيا . ولو كان صاحبنا تشرينشفسكي ☆ على معرفة بهم ، فلعله كان يترجم أحدهم بدلا من «روميل » .

☆ في حقل الاقتصاد السياسي ينظر ماركس الى الاشتراكيين الانجليز مثل نظرته الى أوغسطين ثييري وبينيه في حقل التفسير العلمي للتاريخ. وفي كلا الحالتين فليس امامنا معلمون بل اسلاف هيؤوا بعض المواد – وهي مواد عظيمة القيمة فعلا – لصرح النظرية التي سيبنيها ماركس فيما بعد . وبالنسبة لاسلاف ماركس، فان تاريخ الحل العلمي لمسألة استثمار العمل من قبل الرأسمال يجب الا يقصر على الاشتراكيين الانجليز في النصف الاول للقرن التاسع عشر . لقد ظهر فهم واضح ، حتى درجة بعيدة ، لطبيعة ومنشأ هذا الاستثمار لدى بعض كتاب القرن السابع عشر الانجليز .

☆ تشرينشفسكي : ديمقراطي روسي ثوري عظيم ، وفيلسوف مادي ، وناقد واشتراكي خيالي .

الاشتراكية الخيالية الفرنسية

(١)

بينما كانت « الثورة الصناعية » تتقدم في انجلترا خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، كان صراع وحشي يحتدم بين الطبقة الثالثة والنظام القديم في فرانسا . وكانت الطبقة الثالثة تشمل ، وفقاً لرأي شهير ، كل الشعب الفرنسي باستثناء « الطبقة الممتازة » التي كان النضال ضدها يتخذ سمة سياسية . وعندما انتزعت الطبقة الثالثة السلطة السياسية من الطبقة الممتازة ، كان من الطبيعي ان تستخدم هذه السلطة السياسية لإلغاء المؤسسات الاقتصادية والسياسية التي كان مجموعها يشكل اساس النظام السياسي القديم . وكانت العناصر المختلفة جدا التي تشكل الطبقة الثالثة معنية بصورة حيوية في هذا النضال ضد مثل تلك المؤسسات ؛ ولذلك نجد ان كل الكتاب التقدميين في القرن الثامن عشر في فرانسا قد اجمعوا على ادانة النظام السياسي والاجتماعي القديم . ولم يكن ذلك كل شيء ، اذ انهم مع اتحادهم في ادانة ذلك النظام ، قد اختلفوا ايضا بعض الاختلاف عن بعضهم في نظرتهم الى نوع النظام الاجتماعي الجديد الذي يريدون رؤيته . ولا يمكن طبعا إلا ان يكون ثمة فوارق صغيرة في الرأي

في المعسكر التقدمي ، ولكن ذلك المعسكر ، بالرغم من هذه الاختلافات في الرأي ، قد كان متحداً في جهاده لاقامة النظام الجديد الذي ندعوه الآن « النظام البرجوازي » . ولقد كان ذلك الاجماع قوياً جداً بحيث اضطر حتى الناس الذين لم يتعاطفوا مع المثل الأعلى البرجوازي للانحناء له في ذلك الوقت . وإليكم مثالا عن ذلك :

لقد أدلى الاب دي مابلي ، الذي كان مشهوراً في ذلك الحين ، في جداله مع الفيزيوقراطيين ، بمعارضته مبدأ الملكية الخاصة وماتؤدي إليه من عدم المساواة الاجتماعية . وحسب تعبيره فانه لم يكن يستطيع إنفصالا عن الفكرة البراقة « لجماعية الملكية » ، وبكلام آخر ، فانه يتخذ موقف الدفاع عن الشيوعية . ومهما يكن من أمر فان هذا الشيوعي الوطيد الايمان يرى نفسه ملزماً بواجب التصريح أن فكرة جماعية الملكية تبدو غير عملية في نظره . « ليس في العالم سلطة بشرية تستطيع أن تحاول الآن ارجاع المساواة دون أن تسبب اضطرابات أعظم بكثير من الاضطرابات التي تريد أن تقضي عليها » . تلك كانت قوة الظروف ، بحيث لم يكن بد للمرء ، حتي في حال اعترافه نظرياً بالفوائد المجناة من الشيوعية ، من الاكتفاء بفكرة إفساح النظام القديم مكانه للنظام البرجوازي وليس للنظام الشيوعي .

وعندما أدت الثورة إلى اقامة النظام البرجوازي ، احتدم صراع متبادل بين كل العناصر المختلفة التي تؤلف الطبقة الثالثة ، فبدأت الطبقة الاجتماعية التي كانت تشكل عندئذ جنين البروليتاريا المعاصرة ، حرباً ضد « الاغنياء » الذين حشرتهم مع الاستقراطية. ومع أن الافكار الشيوعية كانت غريبة كليا عن معظم الممثلين البارزين لهذه الطبقة الاجتماعية ، مثل روبسبير وسان جوست ، فان الشيوعية قد ظهرت على المسرح السياسي في شخص « غراكشوس » بابوف لتلعب دوراً في الفصل الأخير لمسرحية التاريخ الكبرى. وقد كانت المؤامرة المنظمة من قبل بابوف وانصاره والمعروفة باسم : مؤامرة الأسوياء (*La Conjuration Des Égaux*)[٩] أشبه بمقدمة للصراع غير المكتمل بعد بين البروليتاريا والبرجوازية ، وهي أحدى الصفات الأكثر تميزا لتاريخ فرانسا الداخلي في القرن التاسع عشر. واذا ما أعدنا التفكير في الأمر ، فان مؤامرة الاسوياء يمكن ان تسمى بشيء أكثر من الدقة : **مقدمة لمقدمة هذا الصراع**. ان الحجج التي قدمها بابوف واتباعه انما توحي بشكل غامض بأنهم يملكون تفهماً للجوهر التاريخي للنظام الاجتماعي الجديد الذي حكموا عليه بالانقراض. لقد كانوا يعرفون حقيقة واحدة وألحوا عليها باعظم تأكيد : « في مجتمع حقيقي يجب ألا يوجد أغنياء ولا فقراء ». وما دام المجتمع الذي انتجته الثورة يضم الاغنياء والفقراء على السواء ؛ فان الثورة لا يمكن ان تعتبر مكتملة حتى ينحي ذلك

المجتمع مكانه « لمجتمع حقيقي » . أما مقدار بعد أفكار البابوفيين عن تلك الأفكار التي صادفناها في مناقشتنا للاشتراكية الخيالية الانكليزية ، فذلك يتضح مما يلي :

لقد علق الاشتراكيون الانجليز أهمية تاريخية عظيمة جداً على امتلاك المجتمع الحديث لقوى انتاجية هائلة . وفي رأيهم أن وجود مثل هذه القوى يجعل من الممكن ، لأول مدة ، اعادة بناء المجتمع بطريقة لا يكون فيه أغنياء ولا فقراء . وعلى النقيض من هذا كان بعض البابوفيين موافقين كلياً على امكانيه زوال سائر الحرف ، بما فيها التكنيكية ، عندما يتحقق مثلهم الشيوعي . وقد قال بيان (الأسوياء) بصراحة : - فلتتلف كل الحرف إذا دعت الضرورة ، طالما امتلك مساواة حقيقية » وصحيح أن هذا البيان الذي خطه يراع سلفيان مارشال لم يكن متفقاً مع رغبة عدد كبير من البابوفيين ، حتى أنهم لم يساعدوا على توزيعه . وعلى اية حال فإن بيوناروتي نفسه قد كتب أنه عندما هب مع ديبون ، ودارتي ، وليبولتيه للدفاع عن المشروع الخاص بثورة شيوعية ، كانت حجته كما يلي : « لقد قيل ان عدم المساواة قد عجلت بتقدم الحرف المفيدة حقاً ، ويجب أن يتوقف ذلك حتى في حال كونه صحيحاً ، مادام التقدم الجديد لا يستطيع إضافة أي شيء إلى السعادة الحقيقية للجميع » . ان هذا يعني أن الجنس

البشري ان يحتاج بعد الآن بصورة هامة الى أي تطور تكنيكي.
ومن المحتمل أن ماركس وانجلز كانا يقصدان فيما يقصدانه مثل هذه المحاكمة البابوفية ، عندما قالا في **بيان الحزب الشيوعي** إن الأدب الثوري الذي صاحب الحركات البروليتارية الأولى كان رجعياً مادام يبشر بالزهد العام وتوطيد المساواة البدائية .

هذه السمة الزهدية كانت مفقودة في كتابات اشتراكيي القرن التاسع عشر الفرنسيين الذين كانوا ، على العكس من ذلك ، متعاطفين جداً مع التقدم التكنيكي .

ولا تذريب في القول إنه حتى رؤيا فورييه الغريبة ، ويجب أن نعترف بصراحة أنها رؤيا مضحكة ، عن الأسود المضادة والفرسان المضادة والحيتان المضادة وماشابهها من الوحوش التي ستظهر لتخدم الانسان وتعمل على راحته ، لم تكن أكثر من اعتراف — ارتدى ثوب الخيال — لأهمية واتساع التقدم التكنيكي في المستقبل . وفي الوقت نفسه — وهذا أمر على أقصى الاهمية بالنسبة لتاريخ النظرية — فان الأغلبية العظمى للاشتراكيين الخياليين الفرنسيين قد تقاعسوا كثيراً خلف زملائهم الانكليز في فهم الطبيعة الحقيقية للنتائج الاقتصادية والاجتماعية للتقدم التكنيكي المعاصر . .

- ٢ -

إننا نعلم أن الاشتراكيين الانكليز كانوا ينادون بأن تطور القوى المنتجة يعجل في تقسيم المجتمع إلى طبقتين ، « الاغنياء » من جهة ، و « الفقراء » من جهة أخرى ، باعتبار أن التضاد بينهما هو التضاد بين طبقة أصحاب العمل وطبقة العمال المأجورين. إن أصحاب العمل يتملكون الجزء الأعظم من القيمة التي يخلقها العمال المأجورون. كان كل هذا جلياً بالنسبة إلى تشارلز هال ، ولكن الكتاب الاشتراكيين الفرنسيين لم يدركوه الا ببطء شديد ؛ وحتى أولئك الاشتراكيون الفرنسيون الذين فهموا أن المصالح المتناقضة بين رأس المال والعمل المأجور هي التناقض الأهم في المجتمع الحديث ، لم يدركوا قط هذا التناقض بالوضوح الذي تكشفه لنا مؤلفات تومبسون وغراي وهودسكين .

لم يتحدث سان سيمون ☆ ، الذي حمل راية آيديولوجيي الطبقة الثالثة في القرن الثامن عشر ، عن استثمار العمال من قبل اصحاب العمل ، بل فقط عن كون أصحاب العمل والعمال ، بمجموعهم ، خاضعين لاستثمار طبقة « كسولة » تتألف في غالبيتها من الارستقراطية والبيروقراطية . وبالنسبة لسان سيمون فان

☆ ولد في ١٧ تشرين اول ١٧٦٠ وتوفي في ١٩ أيار ١٨٢٥

أصحاب العمل هم الممثلون الطبيعيون والمدافعون عن مصالح العمال وذهب اتباعه ابعد منه . فعندما حللوا ما المقصود من « الطبقة الكسولة » لم يدخلوا فيها فحسب الملاكين الكبار الذين يستثمرون « الطبقة الكادحة » بواسطة اجرة الارض العشرية ، **بل الرأسماليين** أيضاً . وعلى أية حال ، وهذا امر جدير بالاهتمام ، فانهم لا يضعون في صف الرأسماليين سوى أولئك الذين يأتي مدخولهم من فائدة رأس المال . كانوا يزعمون أن أرباح اصحاب العمل مماثلة لأجور العمال . ونجد الغموض نفسه — بعد خمس وعشرين سنة — عند برودون ☆ الذي كتب في آذار ١٨٥٠ ما يلي : « ان الاتحاد بين البرجوازية والبروليتاريا الآن ، كما هي الحال في السابق ، يعني تحرير الرق وتحالفاً دفاعياً هجومياً بين الصناعيين والشغيلة ضد الرأسمالي والنبيل » . أما لويس بلان ☆☆ فيرى الاشياء في ضوء اكثر وضوحاً ، لأنه كان يرى التناقض الاجتماعي ، الذي نحن بصدده هنا ، على انه التناقض بين البرجوازية والشعب . وعلى أية حال ، فانه يقصد عندما يتكلم عن البرجوازية « مجموع كل هؤلاء المواطنين ، الذين يعملون ، اذ يملكون رأس المال أو أدوات العمل ،

☆ ولد ١٨٠٩ وتوفي ١٨٦٥

☆☆ ولد ١٨١١ وتوفي ١٨٨٢

بواسطة الوسائط التي تخصهم ولا يعتمدون على الآخرين الا حتى درجة معينة » . كيف يفهم المرء كلمة « الا » هذه ؟ والى جانب ذلك ، كيف يفهم المرء تقرير لويس بلان بأن المواطنين الذين تشملهم البرجوازية **يعملون** بالوسائط التي يملكونها ؟ هل يعني ذلك أنه يتكلم عن البرجوازية الحرفية الصغيرة فقط ؟ أو يجب أن يفهم ذلك أنه يعني أن لويس بلان ـ مثل السانسيمونيين ـ يعتبر أرباح صاحب العمل على أنها أجوره ؟ليس ثمة جواب على هذه الأسئلة، إن بلان يعرف الشعب على أنه « مجموعـــة من المواطنين الذين لايملكون رأسمالا ما ،لذلك يعتمدون كلياً على الآخرين من أجل ضرورات الحياة الاساسية ». وليس ثمة اعتراض على التعريف بحد ذاته . وعلى أية حال، فان « الاعتماد على الآخرين » شيء يمكن أن يختلف جداً ، وبالتالي فان تعريف بلان للشعب لايجاري المفهوم الادق بما لايقاس عن العامـل المأجـــور الذي استخدمه الاشتراكيون الانجليز في أبحاثهم . وعلى العموم فقد كان لويس بلان قليل الاهتمام بالافكار الاقتصادية .

أما جان رينو ☆ وبيير ليرو ☆☆ فقد أبديا اهتماماً اكبر جدا

☆ ولد ١٨٠٦ توفي ١٨٦٣

☆☆ ولد ١٧٩٧ توفي ١٨٧١

بهذه الافكار ، وكلاهما كانا عضوين سابقين في مدرسة سان سيمون ولكنهما سرعان ما تجاوزا نظريته . ويؤكد رينو ان الشعب يتألف من طبقتين تتجابه مصالحهما ، وهما البروليتاريا والبرجوازية . ويدعو البروليتاريين اولئك الذين ينتجون كامل ثروة الوطن ولكن لادخل لهم سوى أجور عملهم » كما يعني بالبرجوازية أولئك « الذين يملكون رأس المال ويعيشون على دخلهم من هذا الرأسمال » . ويعترف بيرليرو بأن هذين التعريفين صحيحان ، بل يحاول احصاء عدد البروليتاريين .

وقد قدر عددهم بحوالي الثلاثين مليوناً في فرانسا ، وهذا - طبعاً - مبالغ فيه ، اذ ان فرانسا المعاصرة نفسها لاتملك هذا العدد .

ان هذا التقدير الفائق يمكن أن يفسر بكون ليرو لم يحشر فيه كل فلاحي البلاد فحسب بل حتى المتسولين الذين يقول انهم يعدون أربعة ملايين . ويرتكب خطيئة مشابهة اذ يضم « فلاحي الريف » الى البروليتاريا ، بالرغم من تعريفه الخاص لذلك الاصطلاح . ان آراء رينو وليرو في هذا الموضوع قريبة جداً من آراء أصحابنا التروتسكيين . ولا ريب ان القارىء سيفهم لماذا لاتتسم النظرات الاقتصادية للاشتراكيين الفرنسيين في الفترة الطوباوية

بالوضوح كما هو الامر لدى الاشتراكيين الانجليز : ففي انجلترا كانت الأشكال المميزة للعلاقات الرأسمالية في الانتاج أكثر وضوحاً ، حتى درجة بعيدة ، مما هي في فرانسا .

ان وضوح الآراء الاقتصادية التي كان يعتنقها الاشتراكيون الانجليز في تلك الفـــترة لم تمنعهم من الاعتقاد أن البروليتاريا والبرجوازية ـ الطبقتين اللتين تتعارض مصالحهما الاقتصادية بشكل مستقيم ـ يمكن ان ينجزا الاصلاح الاجتماعي بكل تناسق واتفاق. لقد شاهد الاشتراكيون الانجليز الصراع الطبقي في المجتمع الحاضر ولكنهم أدانوه بشكل مطلق ورفضوا أن تكـــون خططهم للاصلاح مرتبطة بنضال الطبقات . وفي هذا المجال لافرق بينهم وبين معظم الاشتراكيين الفرنسيـــين . ان سان سيمون والسانسيمونيين ، وفورييـه والفورييين ، وكابت وبرودون ولويس بلان قد اتفقوا تماماً ، رغماً عن اختلافاتهم حول مسائل عديدة ، على أن الاصلاح الاجتماعي يتطلب المصالحة التامة ، وليس الصراع بين الطبقات .

وسوف نرى فيما بعد ان الاشتراكيين الخياليين الفرنسيين لم يرفضوا جميعاً صراع الطبقات ، ولكن ما يجب ان نتذكره الآن هو أن معظمهم لم يعطفوا على الصراع الطبقي ، وان موقفهم السلبي

يفسر السبب في عدم حاجتهم للسياسة .

في منتصف العقد الثالث للقرن ، بحث فكتور كونسيديران ☆ وهو أبرز أتباع فورييه ، عن انحطاط اهتمام العام الفرنسي بالسياسة . وقد عزا هذا الانحطاط الى الاخطاء « النظرية » التي ارتكبها السياسيون الذين عمدوا في واقع الامر ، عوضاً عن البحث عن وسائط تنسيق المصالح ، الى تشجيع نزاعها المتبادل ، الامر الذي لم يكن ، في رأي كونسيديران ، الا «في مصلحة أولئك الذين يتاجرون به » .

للوهلة الأولى يبدو هذا الاستعداد المسالم عند معظم الاشتراكيين الخياليين غريباً نوعاً ما في بلد مثل فرانسا ، قد اجتاحته حديثاً ثورة عظمى ، وحيث كان يتراءى ان الناس التقدميين يجب أن يتمسكوا بالتقليد الثوري في شيء كثير من القوة . وان تفحصاً أعمق للامر سيكشف لنا ، على أية حال ، أن ذكريات الثورة الحديثة هي التي حدت بالايديولوجيين التقدميين ، أمثال كونسيديران ، للبحث عن الطرق والاساليب الكفيلة بوضع حد للصراع الطبقي .

لقد كان المزاج السلمي لهؤلاء الايديولوجيين رد فعل سيكولوجي ضد

☆ ولد ١٨٠٨ وتوفي ١٨٩٣

الاهواء الثورية لعام ١٧٩٣ ، اذ كان الغالبية العظمى للاشتراكيين الخياليين الفرنسيين يذعرون لفكرة بلوغ صراع المصالح المتبادل درجة من الخطورة مماثلة لما صارت اليه في تلك السنة التي لاتنسى ، وفي كتابه الاول (نظرية الحركات الاربع والمصائر الاجتماعية) المنشور عـــام ١٨٠٨ ، كان فورييه ساخطاً على « كارثة عام ١٧٩٣ » التي تدنت بالمجتمع المتمدن الى حالة البربرية .

وحتى قبل فورييه ، دعا سان سيمون الثورة الفرنسية انفجاراً مرعباً وأعظم الكوارث على الاطلاق . وان هـذا الموقف تجاه « كارثة ١٧٩٣ » قد جعـــل فورييه يعبس حتى حيال فلسفة الانوار في القرن الثامن عشر وهي التي يدين لها ، على اية حال ، بأساس نظريته الخاصة . وكذلك لن يوافق سان سيمون على هذه الفلسفة ، على الاقل بقدر ما كان يعتقد انها مخربة ومسؤولة عن حوادث ١٧٩٢ . وفي رأيه ان المهمـــة الاساسية للفكر الاجتماعي في القرن التاسع عشر هي الاستقصاء عـن الاجراءات الواجب اتخاذها « لوضع حد للثورة » ☆

وكان اتباعه يرددون في العقدين الثالث والرابع من القرن ان

☆ اشارة التأكيد هي مني .

يحلوا المشكلة نفسها ، مع فارق وحيد ، وهـــو ان هؤلاء كانوا معنيين ليس بالثورة التي حدثت في آخر القرن الثامن عشر ، بل بثورة عام ١٨٣٠ . وكانت احدى حججهم الرئيسية في جانب الاصلاح الاجتماعي هي ان هذا الاخير (« التعاون » « التنظيم ») سوف يكبح الثورة . وفوق ذلك ، فهم يستعملون شبح الثورة لتخويف خصومهم . في عام ١٨٤٠ مدح أنفانتين السانسيمونيين لصرختهم (هؤلاء هم البرابرة *Voici Les Barbares*) التي اطلقوها في العقد الثالث من القرن عندما رأوا البروليتاريا تظهر قوتها في الانتفاضة الناجحة ضد العرش . ولم تنقض على ذلك عشر سنوات حتى كان يتباهى بأنه يكرر الصرخة نفسها (*Voici Les Barbares* هؤلاء هم البرابرة) .

ان ظهور البروليتاريا على المسرح التاريخي مماثل لظهور «البرابرة»، هذا ما كان يعتقده انفانتين، وهو رأي يشاركه فيه الاشتراكيون الخياليون الفرنسيون. كان كل هذا يميز حتى درجة بعيدة طريقتهم في التفكير بشكل عام وموقفهم تجـــاه النضال السياسي بشكل خاص.

كان الاشتراكيون الخياليون غيورين على الدفاع عـن مصالح الطبقة العاملة، وقساة في كشفهم العديد من تناقضات المجتمـــع البرجوازي. وقـــد علم سان سيمون في آخر حياته ان «كل المؤسسات الاجتماعية يجب ان تسعى من اجل التحسين الاخلاقي والعقلي والجسدي لطبقة هي الاكثر عدداً والاشد فقراً». وكان فورييه يؤكد في غضب نبيل ان حالة العمال في المجتمـــع المتمدن كانت أسوأ من حالة الوحوش الضارية».

ولكن بينما كان الاشتراكيون الخياليون يتحسرون على الحالة الحزينة للطبقة العاملة ويقدمون كل مجهود لمساعدتها لم يكن عندهم اي ايمان بمقدرة تلك الطبقة على العمل المستقل، وعندما اكتسبوا هذا الايمان أرعبهم. ولقد كان ظهور البروليتاريا، كما رأينا آنفاً،

أشبه بغزو بربري للعالم كله بالنسبة لأنفانتين . وقد كتب سان سيمون منذ ١٨٠٢ مخاطبا « الطبقة التي ليس في حوزتها ملكية »: « اعتبروا ماذا حدث في فرانسا عندما استلم رفاقكم السلطة، لقد جلبوا المجاعة » .

ان التباين التالي لذو اهمية واضحة : فحتى ثورة شباط عام ١٨٤٨ ، لم يكن إيديولوجيو البرجوازية يعارضون ، في حال من الاحوال ، النضال السياسي للطبقات . وفي ١٨٢٠ كتب غيزو ان الطبقة الوسطى يجب ان تمتلك السلطة السياسية اذا هي رغبت في تأمين مصالحها في النضال ضد الرجعيين الذين كانوا من جهتهم يكافحون لانتزاع السلطة واستخدامها بحيث تناسب مصالحهم الخاصة . وعندما انتهره الرجعيون لتبشيره بالنضال الطبقي ، وبالتالي تشجيعه للعواطف الشريرة ، سمعوا الجواب المفحم بأن تاريخ فرانسا كله قد « صنعه » صراع الطبقات ، وعليهم ان يخجلوا من نسيانهم ذلك التاريخ لمجرد ان نتائجه لم تكن فى مصلحتهم .

لقد كان غيزو يؤمن بمبادهة « الطبقة الوسطى » ، يعني البرجوازية . ولم يكن خائفاً من تلك المبادهة التي كانت السبب في رغبته في إثبات ضرورة الصراع السياسي بين الطبقات . طبعاً

هو لم يستحسن « كارثة ١٧٩٣ » ، بل ما أبعده عن ذلك . ولقد اعتقد لوقت ما انها لن تحدث ثانية ، ولكنه في عام ١٨٤٨ ابتدأ ينظر الى الموضوع من زاوية مختلفة ، وعندئذ اصبح هو نفسه نصيراً للسلام الاجتماعي . وبهذا الشكل تغيرت الفكرة الاجتماعيـــة وكابدت تبدلا تحت ضغط التطور الاجتماعي .

ويجب ان نذكر القارىء الآن بأن « الاقلية » الاشتراكية في فرانسا ، في ذلك الوقت ، لم تكن في حال من الاحوال ضد السياسة او الصراع الطبقي ، وان هذه الاقلية تختلف اختلافاً كبيراً في طريقة تفكيرها عن الاغلبية التي تحدثت عنها سابقاً .

لقد كانت تنحدر مباشرة من بابوف واشياعه . وان فيليب بوناروتي☆ ، الذي هو سليل ميكيل آنجلو ، وعضو نشيط في « مؤامرة الاسوياء » ، وتوسكاني أصبح مواطناً فرنسياً بمرسوم من الثورة ، هو الذي جلب التقليد الثوري البابوفي الى الاشتراكية الخيالية في القرن التاسع عشر . وقد كان لكتابه المطبوع في بروكسل عام ١٨٢٨ (تاريخ المؤامرة من اجل المساواة المعروفة بمؤامرة بابوف مع ملحق عن المحاكمة التي ادت اليها) تأثير عظيم على الاقليـــة الثورية للاشتراكيين الفرنسيين . وان مجرد كون هذه الاقلية قد

☆ ولد ١٧٦١ في بيزا وتوفي ١٨٣٧ في باريس

وقعت تحت تأثير عضو سابق من « مؤامرة الاسوياء » ليبين ان هذه الاقلية لم تصدمها ـ على عكس الغالبية ـ ذكريات « كارثة ١٧٩٣ » . وقد كان اوغست بلانكي ☆ ، أشهر ممثلي هذه الاقلية ، ثورياً راسخاً حتى نهاية حياته الطويلة ،

اذا كان سان سيمون قد ألح على ضرورة اتخاذ اجراءات من أجل وضع حد للثورة . واذا كانت غالبية الاشتراكيين الفرنسيين قد وافقت كليا معه في هذا الموضوع ، فان الاقلية المتأثرة بالبابوفية وافقت كلياً مع الـ « أسوياء » على ان الثورة لم تنته بعد مادام الاغنياء قد حصلوا على الاشياء الطيبة في الحياة . هنا يكمن الاختلاف السياسي بين الاتجاهين القائمين في الاشتراكية الخيالية الفرنسية : احد هذين الاتجاهين يريد ان يضع حداً للثورة ، بينما يريد الآخر ان يستمر بها .

وان أولئك الذين كانوا يرغبون في وضع حد للثورة كانوا متشوقين بطبيعة الحال لتوفيق المصالح المتصارعة بشكل متبادل في المجتمع . وحسب تعبير كوتسيديران « **فان افضل طريقة لكل طبقة كيما تضمن مصالحها الخاصة هي في ربطها مع مصالح الطبقات الاخرى** » .

☆ ولد ١٨٠٥ وتوفي في الاول من كانون الثاني ١٨٨١

ذلك هو الرأي الذي تمسك به كل الاشتراكيين الخياليين المسالمين ، الذين يختلفون بين بعضهم فقط في الخطوات المتوجبة لمصالحة مصالح كل طبقات المجتمع . وان كل واحد ، تقريباً ، من المؤسسين المسالمين للانظمة الاشتراكية قد وضع خطته الخاصة لصيانة مصالح **الطبقة المتملكة** . ومثال ذلك ان فورييه أوصى بتوزيع انتاج العمل في مجتمع المستقبل بطريقة تؤمن للطبقة العاملة ١٢/٥ وللرأسماليين ١٢/٤ ، ولممثلي المواهب اخيرا ١٢/٣ من مجموع ذلك الانتاج . ولكن سائر خطط التوزيع الخيالية المسالمةالاخرى تقدم دون استثناء بعض التنازلات للرأسماليين وإلا فلن تضمن مصالح الطبقة المتملكة ، وبذلك يمتنع كل أمل في **حل سلمي للمشكلة الاجتماعية** . ان مصالح الرأسماليين ـ مصالح الاغنياء بشكل عام ـ لايمكن انيتجاهلها الا أولئك الاشتراكيون الذين لم يخافوا من التخلي عن ذلك الامل ، واعني بهم أولئك الذين يفضلون **طريقة العمل الثوري**. « وكانت هذه الطريقة مفضلة لدى البابوفيين في نهاية القرن الثامن عشر كما كان اشتراكيو القرن التاسع عشر الفرنسيون الذين وقعوا تحت التأثير البابوفي يميلون أيضاً الى استخدام هذه الطريقة . وان أولئك الذين اتخذ تفكيرهم هذا المنحى ،ولم يجدواضرورة لتوفير مصالح «الاغنياء» ، قد دعوا أنفسهم جهارة ليس ثوريين فحسب ،بل شيوعيين بالاضافة الى ذلك .

وبشكل عام ، فقد كان الاختلاف في المفاهيم الفرنسية عن «الاشتراكية» و « الشيوعية » يعود خلال كل تلك المرحلة التي ندرسها الى كون الاشتراكيين يتصورون ، في خططهم الخاصة بالبنيـــة الاجتماعية للمستقبل ، شيئاً من عدم المساواة ، وهي عدم مساواة كبيرة جداً أحياناً ، في تملك الملكية ، بينما كان الشيوعيون يرفضون ذلك كلياً .

وكما رأينا آنفا فان انجرافاً نحو الطريقة الثورية في التفكير كان يسهل على المصلحين الفرنسيين تبني البرنامج الشيوعي . والحقيقة ان ثوريين من أمثال تيودور ديزامي ☆ واوغست بلانكي قد اعتنقوا الشيوعية .

وعلى اية حال فلم يكن الشيوعيون جميعاً ثوريين . وكان إيتين كابيه ☆ أبرز ممثل للشيوعية السلمية . وقد عبر بوضوح عن الاتجاه

☆ ولد ١٧٨٨ ، توفي ١٨٥٦

☆ ان مؤرخي الاشتراكية الفرنسية لم يقولوا الا القليل عن ديزامي مع ان آراءه في جميع المجالات تسترعي الانتباه . ومن المؤسف ان ضيق المجال يمنعني أيضاً من عرض تعاليمه ، ولكن سوف اقول ان تعاليمه كشفت بوضوح اكثر من الاخرين ، حلقة الارتباط الايديولوجي بين الاشتراكيين الفرنسيين وبشكل خاص جناحهم اليساري ـ الشيوعيين ـ وبين ماديي القرن الثامن عشر الفرنسيين . وقد أخذ ديزامي نظريته بشكل عام مـــن هلفيتيوس ، الذي يدعوه مجدداً جريئاً ومفكراً خالداً . وطبع كتابه الرئيسي (قانون الجماعية) في باريس في عام ١٨٤٣ .

السلمي لمعظم الاشتراكيين الفرنسيين عنـــدما قال : « **اذا انا أمسكت زمام ثورة في يدي فسوف أظل مطبقاً عليها حتى ولو كنت سأموت في المنفى** » . ☆☆

ولقد كان كابيه ، مثله مثل جماعة الانوار في القرن الثامن عشر ، يؤمن بسلطان العقل ويعتقد بأن فوائد الشيوعية سوف تفهم وتقدر حتى من الطبقة المتملكة نفسها . وكان هذا شيئاً لم يعتمد الشيوعيون الثوريون عليه مطلقاً ، ونتيجة ذلك فقـــد بشروا بالصراع الطبقي .

وبالمناسبة يجب الا نحسب ان التكتيك الذي استخدموه يشبه تكتيك الديمقراطية الاشتراكية الالمية المعاصرة التي لاترفض ، كما هو معروف جيداً ، لا النضال الطبقي ولا السياسة . لقد كانوا في الاغلب **متآمرين** . وانه ليصعب ان نكشف في تاريخ الاشتراكية العالمية **متآمراً** نموذجياً اكثر من أوغست بلانكي . ولم يكن تكتيك التآمر يترك سوى مجال ضيق لمبادهة الجماهير . ومـع ان الثوريين الشيوعيين الفرنسيين اعتمدوا على الجماهير اكثر مما فعله

اصدر في عام ١٨٤١ جريدة (الانساني) . ومن الجدارة ان نشير الى أن ماركس في جدله مع الاخوة بوير يدعو اتجاه ديزامي بالعلمي .

☆ ☆ من كتابه المشهور « رحلة الى ايكاريا » . ١٨٥٥ وفيه صف الحياة في مجتمع شيوعي يتخيله .

معاصروهم الاشتراكيون السلميون ، فان مفهومهم عن التغيير المقبل للمجتمع لم يكن يطلب من الجماهير اكثر من تأييد المتآمرين الذين لابد ان يكونوا المصدر الوحيد للعمـــل الاساسي . ان التكتيك التآمري هو دائماً علامة دامغة لعـدم نضج الطبقة العاملة ، وهو يتوقف عندما تحقق هذه الطبقة درجة معينة من النضج .

(٤)

ان لدى الاشتراكيين الخياليين ، على مختلف اتجاهاتهم ، ايماناً ثابتاً بتقدم البشرية. ونحن نعرف اي تاثير مشجع مارسته على الشاب م.ا، سالتيكوف ★ كلمات سان سيمون بخصوص أن « العصر الذهبي » يخص المستقبل وليس الماضي. وكان لدى جماعة الانوار في القرن الثامن عشر ايمان ثابت أيضاً بالتقدم . ومثلما على ذلك النبيل كوندرسي ★★. وليس مجرد الايمان بالتقدم هو ما يشكل سمة مميزة للاشتراكية ، بل كذلك الايمان بأن التقدم سيؤدي الى الغاء « استثمار الانسان للانسان » . وان هذا الايمان ليتكرر بالحاح في خطب السانسيمونيين وكتاباتهم ★★★ . وهاك ما قالوه : « ... في الماضي ، كان النظام الاجتماعي مؤسساً ، بدرجة او أخرى ، على استثمار الانسان للانسان ، ومن الآن فصاعداً سيقوم التقدم الاعظم في وضع حد لذلك الاستثمار مهما ارتدى من اشكال... » ولقد شارك في هذا الطموح اشتراكيو سائر المدارس الاخرى ، ولكن خططهم

★ (١٨٢٦ - ١٨٨٩) ديمقراطي ثوري روسي فضحت مؤلفاته البروقراطية القيصرية ونظام الرق « المترجم » .

★★ المركيز كوندرسي ١٧٤٣ - ١٧٩٤ « المترجم » ،

★★★ ان تصريحات سان سيمون لاتتضمن سوى هنات من هذا . وقدأشرت سابقاً ان السانسيمونيين ذهبوا في مجالات معينة الى ابعد مما فعل استاذهم .

للتنظيم الاجتماعي لم تقترب دائماً من ذلك الهدف . ولقد سبق فرأينا كيف ان هذه الخطط غالباً ما كانت تقبل بشيء من اللامساواة الاجتماعية لايمكن في آخر تحليل ان نؤسس الا على « استثمار الانسان للانسان » . والشيوعيون وحدهم قد افلتوا من هذا التناقض الصادر من جهة واحدة عن الرغبة في التوفيق بين مصالح كل للطبقات بحيث يمتنع الصراع الطبقي ، ومن جهة ثانية عن الادراك الغامض لما هو بالفعل **الجوهر الاقتصادي** لذلك الاستثمار . ولم يعمد الشيوعي ديزامي دونما سبب الى معارضة السانسيمونيين موبخاً اياهم بأن مبادئهم الخاصة « بأرستقراطية القدرات » و « التيوقراطية السياسية » سوف تقود عملياً ، على وجه التقريب ، الى مانراه في المجتمع المعاصر . ولا يقوم لب القضية في مشاريع التنظيم الاجتماعي للمستقبل ، وهي المشاريع التي لم تتحقق بشكل مادي في اية حالة على الاطلاق ، بل ان ما كان يستقطب الاهتمام هو الحقيقة التالية ، ألا وهي ان الاشتراكيين الخياليين قد طرحوا في التداول الاجتماعي فكرة عظيمة أصبحت عندما تسربت الى عقول العمال القوة الثقافية الاقوى في القرن التاسع عشر . ولعل التبشير بهذه الفكرة هو اعظم خدمة قدمتها الاشتراكية الخيالية .

ان الاشتراكية الخيالية في تأكيدها ، بشتى الطرق ، على ضرورة الغاء استثمار الانسان للانسان ، لم تكن تستطيع الا ان تعالج تأثير هذا الاستثمار على الاخلاق العامة . ولقد كان لدى

الاشتراكيين الانجليز ، وبالخاصة أوين وتومبسون ، الكثير مما يقولونه عن تأثيره المفسد على المستثمرين والمستثمرين على حد سواء. ويبرز الموضوع نفسه في كتابات الاشتراكيين الفرنسيين . ومن اليسير فهم ذلك . فاذا كان خلق المرء مقرراً من قبل ظروف تطوره، وهذا ما كرره كل الاشتراكيين الخياليين دون استثناء ـ فمن الواضح اذن ان هذا الخلق لن يصبح خيراً الا اذا سمح له ان يتطور في ظروف جيدة . ولكي تصبح هذه الظروف جيدة ، لابد من القضاء على النقائص القائمة في التنظيم الحالي للمجتمع . ان الاشتراكيين الخياليين في القرن التاسع عشر قد رفضو الزهدية ، وثادوا، بطريقة او بأخرى ، بضرورة « رد الاعتبار للجسد » ،وهذا هو السبب في أن الطموح الى « اطلاق العنان للعواطف الدنيئة » وضمان انتصار بهيمية الانسان على مطامحه العليا قد عزيا الى الاشتراكيين الخياليين، وكان ذلك افتراء من النوع الرخيص في الحقيقة ، لانهم لم يجهلوا ابداً ضرورة التطور الروحي للانسان ، وقد قرر بعضهم بشكل لالبس فيه ان الاصلاح الاجتماعي ضروري كمقدمة للتطور الروحي. وقد قدم السانسيمونيون بعض الملاحظات المرموقة حول الامكانيات البائسة المتوفرة لازدهار الاخلاق في المجتمع المعاصر .

وقد قالوا ان هذا المجتمع لايستطيع منع الجريمة ، وكل ما يستطيعه هو عقابها ، وهذا هو السبب في كون « الجلاد المعلم الوحيد للاخلاق » .

ومما هو جدير بالملاحظة ان السانسيمونيين لايرفضون «الجلاد» فحسب ، بل يرفضون العنف كوسيلة لتحسين الاخلاق الانسانية بشكل عام ، وفي هذا يوافقهم كليـاً الاشتراكيون من كل المدارس الاخرى . وان الثوريين الشيوعيين أنفسهم يقرون العنف كمجرد وسيلة لتنحية العقبات القائمة في وجه اعادة بناء المجتمـع . وقد رفضوا ـ بما لا يقل من عنف عن السانسيمونيين ـ ان يكون « الجلاد » « معلماً » الاخلاق العامة . ولقد فهموا أيضاً على أفضل وجه ان الجريمة لاتمنع بالعقاب وانما بالقضاء على الحوافز الاجتماعية التي تدفع الانسان الى فعل الشر . وبهذا المعنى كان اكثر الثوريين تطرفاً واشد المتآمرين مراساً دعاة لايكلون لفكرة وجوب عدم مقاومة الشر باستعمال العنف .

(٥)

وان آراء الاشتراكيين الخياليين في التعليم لذات اهمية قصوى أيضاً . ونحن نعرف الصلات الوثيقة بين اهتمام روبرت أوين بالتعليم الحقيقي للجيل الصاعد وبين آرائه عن بناء الخلق الانساني . وكان سائر الاشتراكيين في كل الاقطار يشاركون في هـــذه الآراء . ولا عجب ان يولوا أهمية خطيرة للتعليم . وقد كان فوريه ، من بين الاشتراكيين الفرنسيين ، هو الذي عبر عن أعمق الآراء حول مسألة التعليم .

وفي رأيه ان الانسان لا يولد فاسداً ، بل ان الظروف هي التي أفسدته . ان أصول كل العواطف المتطورة عند البالغين موجودة في الطفل ، وينبغي ألا تسحق هذه البدايات ، بل يقدم لها الارشاد الصحيح ، وعندئذ تصبح العواطف منبعاً لكل ماهو سليم ، وعظيم ، ومفيد ، وكريم . ويقول فوريه انه يستحيل اعطاؤها الارشاد اللازم في ظل النظام الاجتماعي الحالي . ان التناقضات في هـــذا النظام تسفه كل مجهود العلم ، بحيث ان الثقافة في الوقت الحاضر لا تعدو كونها مجرد كلمة جوفاء . ولا يمكن تربيـة أطفال الطبقة الفقيرة كما تربى أطفال الطبقة الغنية واصحاب الامتيازات . وان الحاجة هي التي توجه ابن الرجل الفقير عندما يختار حرفة ما ، فهو لا يستطيع ان يتبع ميوله الطبيعية . صحيح ان ابن الرجل الغني يتمتع ، ماليا

بوضع يخوله ان يرضي ميله ، ولكن خلقه يفسد بفعل الحالة الاجتماعية الاستثنائية التي تتمتع بها في المجتمع الطبقة صاحبة الامتياز . وان تكف الثقافة عن ان تكون كلمة فارغة الا عندما تفسح « الحضارة » ، كما يسمي فورييه النظام البرجوازي ، المكان لنظام اجتماعي مبني على العقل . وان العمل يشكل في الوقت الحاضر باللنسبة للشعب الكادح عبئاً ثقيلا ولعنة . وفي جماعية فورييه (*Phalanstère*) ، هذه الجماعية المنظمة وفقاً لمتطلبات العقل يصبح العمل اهتماماً جذاباً (*Attrayant*) . وان منظر العمل الذي يقوم به بهجة جماعات البالغين سوف يكون له تأثير مفيد جداً على الجيل الصاعد الذي سيحب العمل عملياً من المهد . وسوف يزداد ذلك سهولة مادام الاطفال ، بشكل عام ، يحبون عمل الاشياء ، ويتشوقون الى تقليد العمل الذي يقوم به البالغون . ولن تجد هذه الخاصة تطبيقها الملائم الا في جماعية فورييه حيث ستكون الدمى ، في الوقت نفسه ، أدواتاً للعمل وحيث تتحول كل لعبة الى عمل منتج . وبهذه الطريقة سوف يتعلم الطفل ، خلال ألعابه وتقليده ، الانغماس في نوع العمل الذي يجتذبه . وليس ذلك بكاف على أية حال ، بل يجب ان ينور **العمل بالمعرفة** التي سيكتسبها الجيل الناشىء بانجازه العمل الذي يفيد المجتمع بصورة عامة . وهذا يعني في جملة الامر ، حسب فورييه ، ان التعليم سوف يتخذ الصفة التي يدعوها المربون المعاصرون « نظام المخبر » ، اذ أنه سينجز الى ابعد حد ممكن في الهواء الطلق ، ولن يتضمن أدنى

عنصر من « **الاكراه** » . ان الاطفال واليافعين سوف يكونون أحراراً تماماً في اختيار مايجب **ان** يتعلموا عمله ومن الذين سيحصلون تعليمهم عن طريقهم .

وفي رأي فورييه ان مثل هذا النظام يستطيع وحده أن يعطي التطور الكامل لامكانيات الطفل الطبيعية وان تأثيره السليم سوف يزداد لان الغاء تناقضات المجتمع الحـــالي سوف يفسح مجالا كاملا لتطور غرائز الناس الاجتماعية . ولن تبلغ انتاجية العمل ذروتها إلا حيث ينغمس الرجل في مهنته المفضلة **في مجتمع من الرفاق الذين يجدهم مجانسين له** .

ان القارىء سيوافق على ان هذه الاعتبارات الثقافية عظيمة القيمة . وسأشير الى خاصة أخرى عظيمة الاهمية لآراء فورييه وهي ان الاطفال يجب ان يتعلموا ، ابتداء من سن الثالثة او الرابعة ، بواسطة تمارين جماعية مختلفة ، القيام **بحركات متسقة** ، وذلك أشبه ما يكون بالالعاب الرياضية الايقاعية لجاك دالكروزي ، االتي حظيت بالاستحسان العام . ففي النظام الذي اقترحه هذا العبقري الفرنسي كان « التناسق الموزون او المادي » أحد شروط ما اسماه « التناسق العاطفي » .

ولقد كان لدى الاشتراكية الخيالية الفرنسية ما تقوله حول الفن ايضاً . ولقد كتب الشيء الكثير في هذا الموضوع بأقلام السانسيمونيين ، الذين أرادوا ان يحولوا **الشاعر** الى نبي او رسول للحقائق الاجتماعية الجديدة ، ولا ريب ان بيير ليرو هو من أظهر من الحكمة في معالجة الموضوع أكثر من أي شخص آخر .

كتب ليرو ان الفن ، على خلاف الصناعة التي تسعى للتأثير في العالم من حولنا ، هو تعبير عن حياتنا الداخلية الخاصة ، وبكلام آخر « ... الفن هو تعبير عن الحياة ، او بالاحرى ، هو حياة تتحقق ، وتعلن عن ذاتها للناس الآخرين وتسعى لان تصبح خالدة » . وعلى أساس هذا المفهوم اكد ليرو ان الفن لايكرر **الطبيعة** ولا يقلدها ، كما لايمكن ان يكون محاكاة **للفن** ، بمعنى ان فن عصر معين لايمكن ان يكون تكراراً لفـــن عصر آخر . ان الفن الاصيل لاي عصر معين من التاريخ يعبر عن مطامح ذلك العصر من دون اي عصر آخر . « ان الفن يتطور من جيل لجيل مثل شجرة كبيرة تنمو سنة فسنة رافعة قمتهـــا نحو السماء ، وغارسة جذورها في الوقت نفسه أعمق فأعمق في أغوار التربة » . ولقـد سمي الجمال مبدأ للفن . وهذا خطأ ، لان الفنانين غالبـــاً جداً ما يصورون القبيح والكريه وحتى المرعب . ان مملكة الفن أبعد

بكثير من حدود الجمال مادام الفن تعبيراً تصويرياً للحياة ، وما كل شيء في الحياة جميـــلا . ورب من يسأل : ما المقصود اذن بالتعبير الفني عن الحياة ؟ . في رأي ليرو ان ذلك يعني التعبير عنها بواسطة الرموز ، وهو حازم تماماً في تقريره هذا اذ يقول « ان الرمز هو الاساس الوحيد في الفن » . وعلى أية حـــال فهو يعني بالتعبير الرمزي التعبير عن الحياة **بواسطة الصور** بشكل عام . وحين يقول ف.ج. بلينسكي « ان المفكر يعبر عن أفكاره بواسطة أساليب من القياس ، بينما يعبر الفنان عنها بأساليب من الصور »، فهو يتفق تماماً مع ليرو . ان بيوتر الاحمر الرأس ☆ قد وصل في تطوير آرائه الى الاستنتاج بأن الفنان حر ولكنه ليس على قدر من الاستقلال كما يتوهم الكثيرون . « الفن هو الحياة التي تتوجه الى حياة » . ويخطيء الفنان عندما يتجاهل الحياة من حوله . وكان ليرو يعتقد **ان الفن من اجل الفن هو** « نوع من الانانية » . ولكنه كان يشعر ان « الفن للفن » هو في آخر تحليل نتيجة سخط الفنانين على محيطهم الاجتماعي . ولذا فقد كان مستعداً لان يفضله على ذلك الفن المبتذل الذي يعبر عن الميول الدنيئة للمجتمع البرجوازي ، الميول « المادية بدناءة » حسب تعبيره . وعلى الاقل فهو يعلق على الشاعرية « المريضة » التي انتجت مؤلفي غوته **فرتر وفاوست** قيمة اكبر بكثير مما يعلقه على الفن المبتذل المشار اليه سابقاً . ويقول :

☆ يعني ليرو

«ان الشعراء يكشفون لنا قلوباً على درجة كبيرة من الكبرياء والاستقلال كتلك التي يصورها غوته . اعطوا فقط ذلك الاستقلال هدفاً فينقلب اذن الى بطولة .. وباختصار ارونا ، في كل مؤلفاتكم ، المصير الفردي مرتبطاً بمصير الجنس البشري كله .. حولوا جبابرة غوته وبايرون الى كائنات بشرية ، ولكن لاتجردوهم بذلك من خلقهم النبيل » .

ولقد لعبت هذه الآراء في حينها دوراً مهماً في تاريخ تطور فرنسا الادبي . ومن المعروف بشكل عام ، مثلا ، ان هذه الآراء مارست تأثيراً عظيما على جورج صاند ، وعلى الغموم ، فانه اذا كان بين الومانسيين الفرنسيين من يرفضون مبدأ الفن من أجل الفن ، كما هي حال فكتور هوغو مثلا ، بالاضافة الى جورج صاند ، فان من الممكن القول بأن آراءهم الادبية لم تتطور بدون تأثير الادب الاشتراكي لذلك العصر .

(١)

في مجال النظرية ، كانت الاشتراكية الخيالية الافرنسية والانكليزية وثيقة الارتباط بفلسفة الانوار في فرنسا القرن الثامن عشر . ولا ينطبق هذا الا بصورة جزئية على شقيقتها ، الاشتراكية الالمانية . لقد كان بين الاشتراكيين الالمان أشخاص تطورت آراؤهم تحت التأثير المباشر للاشتراكية الخيالية الفرنسية وبالتالي، تحت التأثير غير المباشر لجماعة الانوار الفرنسية . وكان بينهم ايضا من بنيت آرائهم على نتائج الفلسفة الالمانية ، وليس الفرنسية. ولقد كان تأثير لودفيغ فيورباخ على تطور النظرية الاشتراكية الالمانية أعظم من تأثير أي فيلسوف ألماني آخر . لقد كان في الاشتراكية الالمانية مدرسة كاملة لاتفهم تعاليمها النظرية بدون معرفة سابقة بفلسفة مؤلف جوهر المسيحية (وهو ما يسمى الاشتراكية الحقيقية او الاشتراكية الفلسفية) ، ولذا سأعالج هذه المدرسة فقط في مقال عن تطور التفكير الفلسفي الالماني من هيغل الى فيورباخ ، واقتصر هنا على ذلك الاتجاه في الاشتراكية الالمانية الذي يقف بمنأى عن الفلسفة الالمانية ويشتق من تأثير الادب الاشتراكي الفرنسي على الاذهان الالمانية .

واذا كانت فرنسا ذلك الزمان تتلكأ كثيراً عن بريطانيا في التطور الاقتصادي ، فان ألمانيا تتلكأ كثيراً عن فرنسا . كان ثلاثة أرباع السكان البروسيين يعيشون في مناطق ريفية ، بينما الانتاج الحرفي يتغلب في كل المدن الالمانية . ولم تحقق الرأسمالية الصناعية الحديثة أي تقدم هام الا في بعض المقاطعات القليلة جداً (كبروسيا الرينانية) . وكان يمكن اختصار موقف الاجير الالماني بأنه عدم مقاومة مطلقة حيال طغيان البوليس . ويصف فيولاند الحالة السائدة بهذه الكلمات: « ان من يزور مراكز البوليس مرة واحدة في فيينا في الصباح سوف يتذكر كيف يقف عدة مئات الاجراء ساعات في ممر ضيق منتظرين ان تدقق اجازات سفرهم ، بينما يراقبهم شرطي يحمل سيفا او عصا في يده مثل ناظر العبيد . ويبدو ان البوليس والعدالة قد اتفقا على دفع هؤلاء المساكين الى اليأس » . ان هؤلاء المساكين الذين كانوا يعاملون كالقطيع ، على حد تعبير فيولاند ، هم الذين كانوا الباذرين الرئيسيين لافكار الاشتراكية الفرنسية في ألمانيا في العقدين الثالث والرابع من القرن وان ويلهلم ويتلنج ، الكاتب الشيوعي البارز (وهو خياط) قد خرج من وسطهم ، والى آرائه سنوجه اهتمامنا الرئيسي . ولكن قبل ان أقوم بذلك أود ان أقول كلمات قليلة عن كتاب لمؤلف موهوب هو « جورج بخنر » الذي مات فى سن مبكرة ☆

☆ ولد في ١٨١٣ وتوفي ١٨٣٧ . كان اخوه لودفيغ بخنر الذي أصبح فيما بعد معروفاً جداً .

ان طبعة « سرية » بعنوان (*Der Hessische Landbote*) « رسول هسشي) قد طبعت في مطبعة سرية في أوفنباخ في تموز ١٨٣٤ ، وهي موجهة الى الفلاحين . وتلك حقيقة مرموقة،لان أياً من الادب الاشتراكي الفرنسي او الأنكليزي لايتضمن نداءات موجهة الى الفلاحين ، كما ان رسول هسشي كان في المانيا نفسها ظاهرة مفردة ، لقد كتب ويتلنج وأولئك الذين يشاركونه آراءه مؤلفاتهم للطبقة العاملة ، يعنى الصناع بالمعنى الحقيقي للكلمة والاشتراكيون الروس في العقد السابع من القرن الماضي هم الوحيدون الذين وجهوا نداءاتهم بشكل رئيسي الى الفلاحين .

ويمكن ان يسمى (رسول هسشي) في مضمونه نارودنيكياً (شعبيا) لانه « يعالج الحاجات الفورية لجماهير الشعب » كي نقتبس تعبيراً كثيراً مايستعمله أصحابنا النارودنيك . ويقارن بخنر في هذاالكتاب الحياة الحرة الرخية للغني،هذه الحياة التي تشبه وليمة لاتنتهي ، بمرارة الفقير وتعبه الذي لاينقطع . ويسترسل في الكلام عن الضرائب الثقيلة التي تسحق الشعب،ويخضع شكل الحكم القائم لنقد مرير . وأخيراً ينصح الناس ان يهبوا ضد مضطهديهم مستشهداً بحوادث تاريخية مماثلة ، وبالخاصه ثورات ١٧٨٩ و ١٨٣٠ في فرانسا ، التي أثبتت أمكانية قيام الشعب بانتفاضات مسلحة ناجحة .

في ذلك الوقت كان التوجه الثوري الى الفلاحين لا حظ له من

النجاح . وبالفعل فان الفلاحين سلموا السلطات نسخ (رسول هسشي) التي رميت خلال الليـــل خارج اكواخهم ، كما صادرت الشرطة النسخ المتبقية ، واضطر بخنر الى الهرب لينجو من الاعتقال . وعلى أية حال فان استعماله لغة الثوريين في مخاطبة الفلاحين كان سمة مميزة للتفكير الاشتراكي الالماني خلال العقـــد الثالث من القرن . ان عبارة « السلام للاكواخ والحرب على القصور » هي نداء بخنر في كتابه ، وكان نداء للصراع الطبقي . وقد وجه ويتلنج النـداء نفسه الى قرائه . ولم تظهر الذهنية المسالمة وتسد لفترة من الزمن إلا في مؤلفات الكتاب الاشتراكيين الالمان الذين ينتسبون الى مدرسة فيورباخ الفلسفية .

وعندما بشر بخنر بالنضال الطبقي ، لم يتوصل الى ادراك أهمية السياسة في هذا النضال ولم يكن يدري مايفعله بحسنات الشكل الدستوري للحكم . وكان يخاف ، مثل أصحابنا النارودنيك ، ان يؤدي الدستور ، بسبب مايحققه مـــن السيطرة البرجوازية ، الى التدهور أكثر فأكثر بظروف الشعب .

« اذا نجح دستوريونا في قلب الحكومات الالمانيـــة وتأسيس ملكية ☆ او جمهورية موحـــدة ، فان ذلك سيؤدي الى خلق ارستقراطية مالية كما في فرانسا . فالأفضل ان تظل الامور على حالها » . كان مثل هـــذا الموقف تجاه الدستور قريباً أيضا من

☆ كان الدستوريون يريدون تحقيق الوحدة السياسية الالمانية .

وجهة أنظر صحابنا النارودنيك . وطبعاً ما كان يمكن ان يكون بخنر ، كثوري ، مؤيداً للنظام السياسي المرعب الذي كان قائماً آ نئذ ، وقد وقف أيضاً الي جانب الجمهورية ، ولكن ليس من أجل جمهورية تجلب حكم الارستقراطية المالية في أذيالها . ان ما كان يريده هو أن تؤمن الثورة قبل كل شيء مصالح الشعب المادية . ومن جهة أخرى فقد كان يعتبر الليبرالية الالمانية عاجزة ـ بالضبط لانها لاتريد أو لاتستطيع ان تجعل مصالح الجماهير الكادحة أساساً لمطامحها السيادية .

لقد ساوى بخنر مسألة الحرية بمسألة القوة ، وهي نظرية سيطورها لاسال على خير وجه بعد عـــدة سنوات في خطابه عن جوهر الدستور .

وكتب بخنر أيضاً مسرحية (ثعلب دانتون) . ولن أشغـــل نفسي بالتقدير الادبي لهذه المسرحية ، بل سأكتفي بالاشارة الى أنها مشربة بـ « روح »السعي المعذب والعقيم وراء ايجاد توافق بين الحركات التاريخية الكبرى وبعض القوانين المخصوصة . وهاك ما كتبه الى خطيبته في رسالة لها في حين كان يعمل من دون ريب في مسرحيته : « كنت أحاول خلال الايام القليلة الاخيرة طوال الوقت ان أشرع قلمي ، ولكني كنت عاجزاً عن كتابة كلمة واحدة . لقد قمت بدراسة لتاريخ الثورة ، فأحسست نفسي مسحوقاً ، اذا جاز التعبير ، بفعل حتمية التاريخ القاسية . انني أرى في الطبيعة البشرية تفاهة منفرة ، وأرى في العلاقات الانسانية قوة لاتقاوم تخص الجميـع

بشكل عام ولا تخص أحداً بشكل خاص . وليس الفرد الا زبداً على قمة موجة . العظمة مجرد شيء عارض ، وقوة العبقرية مجرد لعبة هزلية ، ومحاولة مضحكة للنضال ضد قانون حديدي يمكن في أحسن الحالات ان يعرفه المرء ، لكنه لايمكن قط ان يخضعه لارادته » . مـا كانت الاشتراكية الخيالية في القرن التاسع عشر تستطيع مجابهة مسألة توافق تطور البشرية التاريخي مـع قوانين خاصة ، الامر الذي كان جماعة الانوار الفرنسيون في القرن الثامن عشر عاجزين عنه أيضاً . وسوف أقـول أكثر من هذا : ان الاشتراكية في الفترة التي ندرسها كانت خيالية بالضبط لعجزها عن حل المسألة التي نتحدث عنها . وعلى أية حال . فان مجهودات بخنر المتواصلة لحل تلك القضية تدل على أنه ماعاد يستطيع ان يقتنع طويلا بوجهة نظر الاشتراكية الخيالية . وعندما كان ا . هرزن يكتب كتابه « من الشاطىء الآخر » ، فقد كان يصارع نفس القضية التي عذبت بخنر سابقاً .

(٢)

لقد أشرت سابقاً الى ان الافكار الاشتراكية الفرنسية قد انتشرت في المانيا من قبل الاجراء ، وقد حدث ذلك بالطريقة التالية : من المعروف بشكل عام ان الاجراء ، عندما يتعلمون مهنتهم ، يقضون عدة سنوات في التجوال من مكان الى مكان ، وكثيراً ما يغادرون الحدود الالمانية . وعندما يأتون الى بلدان أكثر تطوراً ، فقد كانوا ينضمون غالباً الى الحركات الاجتماعية التقدمية . ففي فرنسا تعرفوا على الافكار الاشتراكية ، متعاطفين على الاغلب مع اكثر أشكال الاشتراكية تطرفاً ، الشيوعية . وان أبرز نظري في الاشتراكية الالمانية ، وهو الخياط ويتلنج الذي أشرت اليه سابقاً ، قد تأثر بالاشتراكيين الخياليين الفرنسيين ، وأصبح شيوعياً أيضاً .

لم تتوجه الاشتراكية الخيالية الى المجرى الموضوعي للتطور التاريخي ، وانما الى مشاعر الناس الرقيقة . واذا أردنا تعبيراً شاع كثيراً بين الكتاب الالمان ، فهي قد كانت **اشتراكية عاطفية**. ولن يشذ ويتلنج عن القاعدة العامة ، فهو الآخر قد توجه الى عواطف اولئك الذين خاطبهم ، حاشياً كلماته باقتباسات من التوراة. وان كتابه الاول (الانسانية كما هي وكما يجب ان تكون) الذي نشر في عام ١٨٣٨ يبدأ بالمقطع التالي من الانجيل : « ولكنه عندما

رأى الجموع أشفق عليهم . . . حينئـــذ قـــال لتلاميذه : ان الحصاد كثير حقاً ، وأما العملة فقليلون . لذلك اطلبوا من رب الحصاد ان يرسل عملة الى حصاده » .*

لقد فسر ويتلنج هذه الكلمات من الانجيل بأن الحصاد هو البشرية التي دانت للقطاف . بينما ثمرته هي جماعية الملكية للارض . وكما قال ، مخاطباً قراءه : « ان وصية الحب تدعوكم الى الحصاد بينما يدعوكم الحصاد الي الاستمتاع به . اذا كنتم ترغبـــون في الحصاد والاستمتاع ، فيجب ان تنفذوا وصية الحب »

لقد انطلق أوين من نظرية تكوين الخلق الانساني ، يعني من مفهوم معين للطبيعة الانسانية . وكان المفهوم نفسه مقبولا لدى الاشتراكيين الفرنسيين الخياليين ، وقد كيفه كل واحد منهم وفق حاجاته الخاصة . ولم يستثن ويتلتج من ذلك . لقد انطلق ، متأثراً خطى فوريه ، من تحليل عواطف الانسان ومتطلباته ، واسس خططه من أجل مجتمع المستقبل على نتائج هـــذا التحليل . وعلى أية حال ، فانه لم يعلق أي مغزى مطلق على خطته . وكما قال هو نفسه ، فإن مثل هذه الخطط جيدة في اثبات امكانية وضرورة الاصلاح الاجتماعي . « بقدر ما تكتب مثل هذه الاعمال ، فان الناس سيحصلون على مزيد من البراهين عن جدواهـــا . وعلى أية حال ، فانه لابد لنا ان نكتب الخطة الفضلى بدمائنا ... » إن

---

* (متى ٩ : ٣٦ - ٣٧) « المترجم » .

هذا ليتضمن ادراكا اكثر او أقل غموضاً للحقيقة التالية ، الاوهي ان صفة مجتمع المستقبل يقررها المجرى الموضوعي للتطور الاجتماعي الذي يجد تعبيره ، من بين عوامل اخرى ، في الصراع الطبقي الثوري. ولم يخاطب ويتلنج « الاغنياء » . ولا حتى البشرية بأسرها دون تمييز للقب أو الحالة الاجتماعيـــة ، وانما خاطب « أناس العمل والعناية » فقط . وقد زجر ويتلنج فوريه بكل بساطة من أجل التنازل الذي قدمه للرأسمال في مشروعه من اجل توزيع المنتجات. وفي رأيه ان اعطاء مثل هذه التنازلات يعني وضع رقع قديمة على لباس البشرية الجديد ، والاستهزاء بالاجيال الحاضرة والمقبلة . لقد قال بأن احلال الجديد مكان القديم هو ثورة ، ولذلك لايمكن ان يكون الشيوعيون الا ثوريين . وعلى أية حال ، فالثورات لن تكون دائماً دامية . وبالنسبة للشيوعيين فان الثورة السلمية مفضلة على الثورة الدموية ، ولكن سياق مثل هذه التغييرات لايرتبط بهم ، وانما بسلوك الطبقات العليا والحكومات . « في أوقات السلم سوف نعلم ، وفي أوقات العاصفة سوف نعمل » ، هذا ما كتبه ويتلنج . وعلى أية حال فلقد وصف هذه الصيغة بحيث يتضح تماماً أنه لايمتلك فكرة واضحة كل الوضوح عـــن طبيعة العمل البروليتاري ، او عمـا يجب على العمال ان يتعلموه . وحسب تعبيره ، فأن البشرية قد بلغت درجة كافية من النضج لتفهم مايلزم لها لتدفع جانباً الخنجر المصلت على عنقها . ولقـــد أدان رأي ماركس بأن المانيا لاتستطيع ـ في تقدمها التاريخي نحو الشيوعية ـ

ان تتجنب المرحلة المتوسطة من السيطرة البرجوازية . كان يريد من المانيا ان تتخطى تلك المرحلة ، تماماً كما أراد اصحابنا النارودنيك من روسيا ان تفعل الشيء نفسه . وفي ١٨٤٨ لم يشأ ان يوافق على ان من واجب البروليتاريا شد أزر البرجوازية في نضالها ضد بقايا الاقطاعية والملكية المطلقة . واذا كان ويتلنج مقتنعاً بأن أي امرئ يجب ان يملك من الشعور مايجعله يرغب في تنحية الخنجر المصلت على عنقه ، فقد نادى بنظرية تلخص عادة بما يلي : « كلما ساءت الحال كان ذلك أفضل » . كان يعتقد بأن الجماهير الكادحة بقدر ما تسوء ظروفها تكون أكثر ميلا الى الاحتجاج ضد نظام الاشياء الحالي . ولسوف يبرهن التطور اللاحق للبروليتاريا الاوروبية بأن الامر لم يكن كذلك . ومهما يكن من امر ، فان هذه النظرية سوف تعاود الظهور بشكل كامل في حجج م . ا . باكونين(١١). ومن بين الاساليب التي قد تكون في رأي ويتلنج ضرورية في ظروف معينة من النضال من اجل اعادة بناء المجتمع ، نصادف أسلوباً يبدو اليوم غريباً جداً . فقد وجد من الممكن ان يوصي ، وصحيح ان ذلك لن يكون الا بصورة مشروطة وفي ظروف معينه ، بأن يلجأ الشيوعيون الى العناصر اللاطبقية في المدن ، ويطبقوا « التكتيك الجديد » وفقا للمستوى الاخلاقي المنخفض لهذه العناصر . لقد أشار الى هذه الفكرة من طرف خفي فقط في كتابه الاساسي ، ولكن بطريقة شفافة تماماً . وفيما بعد عبر عن هذه الفكرة بصراحة أكثر عندما صاغ نظرية « البروليتاريا السارقة »

التي رفضها أولئك الذين شاركوه آراءه . وعلى أية حال ،فقد أبدع باكونين فيما بعد نظريته المشابهة عـــن « السارق » كعمود فقري للحركة الثورية . وإني اذكر أولئك الذين ستصدمهم هذه النظريات بالمكان الذي اعطي في الادب الرومانتيكي لنموذج اللص الجريء الطيب القلب . وليس في الادب الرومانتيكي فقط : فان كارل مور ، بطل شيلر ، لص هو الآخر . وبشكل عام ، فان الاشتراكية الخيالية قد دفعت جزية لابأس بها للوهم والخيال .

(٣)

نجد في مؤلف ويتلنج الاساسي ؛ الذي كسب تقريظاً حماسياً من فيورباخ وماركس ، عدداً من الملاحظات المبعثرة التي ترينا ان لدى ويتلنج فهما للمنطق الموضوعي في العلاقات بين الطبقات في المجتمع الرأسمالي أوضح مما لدى الكثيرين من الاشتراكيين الخياليين الفرنسيين. اننا نصادف عدداً من الملاحظات الهامة في فصول كتابه (الضمانات) ، وبالخاصة في الفصول الاولى حيث يعالج نهوض الطبقات والحكم الطبقي . وهنا يبدو ويتلنج - بدون شك - مثاليا في موقفه تجاه القوى المحركة للتطور الاجتماعي ، ولكن يمكن ان نشعر أنه لم يعد راضياً عن المثالية التاريخية وأنه يتمعن ، بارتياح ، في التخمينات التي تطرق فكره ، فيلمح الى امكانية ايضاح أعمق ، على الاقل ، لبعض ظواهر الحياة الاجتماعية . وأنا متأكد من ان هـــذه السمة لمؤلف ويتلنج الرئيسي هي التي حازت استحسان ماركس . وعلى أية حال فان كتابه (الضمانات) لايكشف عن أي اهتمام من جانب المؤلف بالنظرية الاقتصادية الخاصة . لقد كان إبناً لعصره ، وفي ذلك العصر لم يكن الاشتراكيون الالمان يعنون بالاقتصاد . ولنقتبس من ذكريات انجلز عن عصبة الشيوعيين الالمان في العصر السابق للماركسية : « لا أعتقد ان في كل العصبة آنئذ شخصاً واحداً قرأ كتاباً في الاقتصاد السياسي . لكن هذا لايهم الا

قليلا لأن « المساواة » و « الاخـاء » و « العدالة » قدساعدتهم في ذلك الوقت في تذليل كل عقبة نظرية». وسوف يتضح أن الشيوعيين الالمان في هـــذا المجال كانوا مغايرين كلياً للاشتراكيين في انجلترا وعلى أية حال، فيجب ان لانسى أنه كان في ألمانيا ، حتى في العقد الثالث من القرن الماضى ، اشتراكي عني عناية كبرى بالمسائل الاقتصادية وكان يملك معرفة ممتازة في أدبيات الاقتصاد السياسي . وصحيح أنه كان يقف في معزل تمامـــاً عن الاخرين . وذلك هو كارل رودبرتوس جاكتزو ١٢ ☆ .

قال رودبرتوس ، متحدثاً عن نفسه ، إن نظريته كانت «مجرد استنتاج منطقي مشتق من الاطروحة التي أدخلهـا سميث إلى العلم واثبتتها مدرسة ريكاردو . وتقرر هذه النظرية **أن سائر مواد الاستهلاك يجب اعتبارها، من وجهة النظر الاقتصادية ، منتجات للعمل ، ولا تكلف شيئاً إلا العمل** » ☆☆ إنه يعتقد بأن العمل هو المصدر الوحيد لقيمة مواد الاستهلاك، وذلك في كتابه الأول الذي طبع في عام ١٨٤٢ بعنوان « حول معرفة شرط اقتصاد الدولة » . وفي الحقيقة لم يعالج رودبرتوس اقتصـاد الدولة بالمعنى الحقيقي للكلمة : إنه قام بدراسة لظروف العمال في المجتمع الرأسمالي وحاول اقتراح اجراءات تســـاعد في تحسين ظروفهم . وقد كتب « إن الهدف

☆ ولد في ١٨٠٥ وتوفي ١٨٧٥ .

☆ ☆ اشارة التأكيد من رودبرتوس .

الرئيسي لدراساتي هي زيادة حصة العمال من الانتاج القومي ، وهي زيادة لن تتأثر بتذبذبات السوق بل يجب أن تبنى على أساس ثابت . أنا أريد تمكين تلك الطبقة من الحصول على فائدة من تزايد انتاجية العمل . أنا أريد القضاء على تأرجح قانون يمكن لولا ذلك أن يجلب الدمار لعلاقاتنا الاجتماعية ، قانون تقود ظروف السوق ـ طبقاً له ـ إلى تخفيض الاجور إلى مستوى حاجات العمال الضرورية جداً دون اعتبار لكيفية ارتفاع انتاجية العمل . إن هذا المستوى من الأجور يمنع العمال من الحصول على ثقافة ملائمة ويناقض بصورة صارخة وضعهم القانوني الحالي ومساواتهم الصورية مع جميع طبقات المجتمع الاخرى ، هذه المساواة التي نادت بها أهم مؤسساتنا .

ما دامت الاجور في الظروف الحالية تنخفض دائماً إلى مستوى حاجات العمال الضرورية جداً ، بينما انتاجية العمل هي في ارتفاع مستمر ، فان الطبقة العاملة تحصل على حصة متناقصة أبداً من الانتاج الذي يخلقه عملها . قال رودبرتوس « إنني مقتنع بان أجرة العمل ، المعتبرة جزءاً من الانتاج ، تتناقص على الاقل بنسبة تزايدات انتاجية العمل ، إذا لم يكن بنسبة أعظم من ذلك . » اذا استطاع المرء أن يثبت التدهور المستمر في أجور العمال (بوصفها حصة من الانتاج القومي الذي يخلقه عملهم) فإن المرء يستطيع أن يفهم بسهولة إذن ظاهرة الشؤم الاقتصادية التي هي الازمات الصناعية . ونتيجة

للتدهور النسبي في الاجور ، فان القوة الشرائية لدى الطبقة العاملة لاتعود تتطابق مع تطور قوى المجتمع المنتجة . إنها لاتزيد ، بله تنقص ، بينما يرتفع الانتاج وتغص الاسواق بالبضائع . لذلك تنهض عقبات في وجه ايجاد الاسواق ، ويحدث هبوط في الاعمال ، وأخيراً أزمات صناعية . ولم يرتبك رودبرتوس للاعتراض القائل بان القوة الشرائية تبقى في أيدي الطبقات العليا ولاتنى تؤثر على الاسواق . فهو يقول « إن المنتجات تفقد كل قيمة حيث لاتكون حاجة إليها وإن منتجاً قد يكون ذا قيمة للعمال ربما يكون نفاية كلية بالنسبة للطبقات الاخرى ولايجد تصريفاً . عندئذ يحدث توقف مؤقت في الانتاج القومي حتى تباع بصورة تدريجية كميات البضائع المتجمعة في السوق ، وتتكيف ادارة الفعالية الانتاجية مع متطلبات أولئك الذين حصلوا على امتلاك القوة الشرائية التي انتزعوها من العمال » .

إن تناقص حصة الطبقة العاملة من الانتاج القومي يعني **افقار** هذه الطبقة . ولا يتفق رودبرتوس مع آدم سميت الذي يؤكد أن الرجل يكون غنياً أو فقيراً حسب الدرجة التي يكون بها قادرا على تحقيق متطلباته . فإذا كان ذلك حقيقة فإنه يعني أن الالماني الميسور في عصرنا أغنى من الملوك القدماء . « يجب أن يفهم من كلمة الثروة (سواء كانت ثروة فردية أم طبقية) **الحصة النسبية** (لهذا الفرد أو تلك الطبقة) من الكتلة الاجمالية للانتاج التي توجد في مرحلة معينة من تطور الشعب الثقافي » .

وهكذا فإن النمو في ثروة المجتمع يترافق بافقار نسبي للطبقة التي يخلق عملهـــا تلك الثروة . إن خمسة اسداس الامة لايحرمون فحسب من نعم الثقافة ، بل يعانون كرباً مرعبـــاً من البؤس المتربص دائماً على ابوابهم . ولنفرض أن المصائب التي حدثت للطبقات الـكادحة في العصور التاريخية السابقة كانت ضرورية لتقدم الحضارة . ولكن الاشيـــاء تختلف اليوم ، حيث نمو قوى الانتاج يجعل إنهاء مثل هذه المصائب أمراً ممكناً تمامـــاً . هذا هو السبب في أن رودبرتوس يسأل في رسالته الاولى إلى كير شمان: « أيمكن أن يكون شيء أجمل من المطالبة بأن يحصل صانعو الثروة القديمة والجديدة على بعض الفائدة من تزايدها وان يزداد دخلهم ، وأن تخفض ساعات عملهم ، أو أن ينضم أخيراً عدد متزايد منهم إلى صفوف الناس المحظوظين الذين يحصدون ثمار عملهم ؟ » واعتقاداً منه بان ليس هناك طلب أجمل ، يقترح رودبرتوس من جانبه عدداً من الاجراءات لتحسين نصيب العمال .

هذا كله يعود في آخر تحليل إلى وجوب تنظيم الاجور بواسطة القانون ، وعلى الدولة أن تقرر مستواهـــا في كل صناعة ، وان تضبطهـــا وفقاً للنمو في انتاجية العمل القومي . إن هذا التحديد لمستوى الاجور سوف يؤدي ، بشكل منطقي ، إلى إقامة « ميزان جديد للقيمة » .

ومادامت كل مواد الاستهلاك ـ من وجهة نظر الاقتصـــاد

السياسي ـ يجب أن تعتبر كمجرد منتجات للعمل فحسب ، بدون أية قيمة أخرى غير قيمة العمل ، فان العمل وحده يمكن إذن أن يستخدم « كميزان صحيح للقيمة » . وكنتيجة للتذبذب في أسعار السوق ، فان المنتجات لايجري تبادلها دائماً في المجتمع الحالي طبقاً لكمية العمل المبذولة في انتاجها . وهذا الشر يجب أن يقضي عليه تدخل الدولة . فالدولة يجب أن تضع « نقداً مقدراً بالعمل » في التداول ، يعني شهادات تبين كم من العمل قد صرف في انتاج سلعة معينة . وباختصار توصل رودبرتوس بذلك إلى فكرة تنظيم التبادل نفسها التي ظهرت في انكلترا في العقد الثاني من القرن ومن هناك هاجرت الى فرنسا (برودون) . وليس ثمة حاجة إلى معالجتها مطولا .

ويجب ان نضيف على أية حال أن مثل هذه الاجراءات لاتملك بالنسبة لرودبرتوس سوى مغزى مؤقت . وقد قال إنه سيأتي زمان ـ حوالي خمسمئة سنة أو مايقاربها ـ يقام فيه نظام شيوعي ، وعندئذ يلغي استثمار الانسان للانسان !

واذ يقدم رودبرتوس حله « للقضية الاجتماعية » فإنه لايني يكرر بأن مثل هذا الحل يجب أن يكون سلمياً بشكل مطلق . لقد كان يعوزه الايمان ليس « بالمتاريس » و « البترول » فحسب ، بل كذلك بقدرة البروليتاريا على العمل السياسي المستقل . وكان يتوقع أن تحدث كل التغيرات من عل ، من السلطة الملكية التي كان يعتقد أنها يجب ولا بد أن تصبح اجتماعية .

إذ عرضت آراء رودبرتوس ، استندت الى مؤلفات مختلفة من وضعه مبتدئاً بكتابه (حول المعرفة) الذي طبع في عام ١٨٤٢ ... الخ . ومن الجدير بالملاحظة أنه قد اختصر آراءه في مقالة أرسلها في نهاية العقد الثالث إلى الصحيفة الاكسبرجية العامة) التي رفضت المخطوطة . هذه المقالة طبعت في كتاب (مقالات سياسية واجتماعية) الذي نشره رادولف ماير في برلين في ١٨٨٢ . وإن هـذه المقالة لتثير الاهتمام في كل مجال ، ولكن بالخاصة في المكان الاول في اعتبارها الطبقة العاملة برابرة (إنهم برابرة في الروح والطرق) وفي المكان الثاني في تخوفها من أن البرابرة الذين يعيشون الان في المجتمع المتمدن يمكن أن يصبحوا أسياداً لهذا المجتمع ، تماماً كما أصبح البرابرة القدماء أسياد روما . إن الاشياء تسير سيراً حسناً كلما استخدمت الدولة برابرة اليوم في صراعها ضد البرجوازية . ولكن السؤال هو : على من ستعتمد الدولة في نضالها ضد هؤلاء البرابرة ؟ وهل سيناضل هؤلاء طويلا ضد انفسهم ؟ إن المجتمع سيضطر من أجل صيانة نفسه أن ينجز الاصلاح الاجتماعي .

لقد كان رودبرتوس خائفاً من الطبقة العاملة . ولو أنه كان أقل خوفاً منها ، فلا بد أن يكون إذن أقل ميلا لطوباويته الاساسية - الملكية « الاجتماعية » ، والطوباويات الثانوية المتشابهة أمثال « النقد المقدر بالعمل » .

إن الاقتصاديين البرجوازيين يكررون الان بكل أهمية بأن

كارل ماركس استعار نظريته الاقتصادية من الاشتراكيين الانجليز. فقبل حوالي عشرين أو خمس وعشرين سنة، عندما كانوا يطلعون بصعوبة على الادب الانكليزي، « اكتشفوا » أن اقتصادياً يدعى ماركس يدين بكل شيء لرودبرتوس . هـــذه التأكيدات وتلك سواء في عدم صحتها . وفيما عدا ذلك ، فان معظم كتب ردوبرتوس صدرت حين كانت الميزات الرئيسية لآراء ماركس الاقتصادية قد اتخذت شكلاً محدداً . ومهما يكن من أمر ، فإن رودبرتوس يحتل مكان الشرف بين الاقتصاديين الالمان الذين ينظر إليهم ، ولنقل ذلك في معرض حديثنا ، باعظم الازدراء .

ترجم هذا الكتاب من المؤلفات الفلسفية المختارة

الجزء ٣/١٩٥٧ من الصفحة

٥٦٧ الى ٦١٣

الملاحظـــــات

١ النارودنيك : اتجاه برجوازي صغير ظهر في الحركة الثورية الروسية في العقدين السادس والسابع من القرن التاسع عشر . أراد النارودنيك إلغاء الاوتوقراطية وتسليم أملاك الاقطاعيين للفلاحين . لقد أنكروا أن تكون العلاقات الراسمالية والبروليتاريا أمرين لابد من ظهورهما في روسيا ، وبسبب موقفهم هذا ، قالوا ان الفلاحين يشكلون القوة الثورية الاساسية في البلاد ، وإن جنين الاشتراكية هو الجماعية القروية . وهذا سبب تركيز فعالياتهم في الريف لاثارة الفلاحين ضد الاوترقراطية ؛ ومـــا كانوا يعتقدون بدور صراع الطبقـــات في التطور التاريخي بل اعتقدوا ان التاريخ من صنع الابطال الذين يتبعهم الشعب . وقد استخدم النارودنيك تكتيك الارهاب الفردي في النضال ضد القيصرية .

في العقد الثامن والتاسع تصالح النارودنيك مع القيصرية وصاروا يعبرون عن مصالح الفلاحين الاغنياء (الكولاك) وشنوا نضـالا ضد الماركسية .

٢ ـ كتب بليخانوف كتاب « الاشتراكية الخيالية في القرن التاسع عشر » خلال شهر آب ١٩١٣ .

٣ ـ انظر . انجلز (أنتي دوهرنغ) دار النشر باللغات الاجنبية، موسكو ١٩٥٧ .

٤ ـ القانون الطبيعي: عبارة تستعمل في العلم السياسي البرجوازي لتدل على مفهوم عن القانون يفترض أنه لاصق بطبيعة الانسان وعقلية. الدولة والقانون يعتبران بنظر أتباع هذا المفهوم حصيلة بعض الصفات التي لاتتغير في الانسان ، بغض النظر عن الطبقة ودرجة تطور المجتمع الذي يعيش فيه .

في القرن الثامن عشر كان روسو وهلفتيوس وهولباخ من بين الذين يعتقدون بالقانون الطبيعي ، واستخدموه في النضال ضد الاقطاعية ، التي أعلنوا أنها معارضة للنظام « الطبيعي » للاشياء ومغايرة لمتطلبات طبيعة الانسان وعقله . وبالرغم من السمة الميتافيزيكية المحدودة لارائهم في القانون الطبيعي، فان النتائج التي استخلصها فلاسفة عصر الانوار الفرنسيون من مبدأ هذا القانون كانت تقدمية وثورية .

٥ ـ جمعية المراسلة اللندنية : تشكلت عام ١٧٩٢ ، كانت المنظمة السياسية العمالية الاولى في تاريخ انكلترا . وقد قامت هيئات مشابهة في شيفلد ، كونفنتري ، ايدنبرغ ، نوتنغهام وادنبرغ ، وقد اشتغل أعضاؤها بالمراسلة كل مع الاخر ، وهذا ما اعطاهم اسم الجمعية . دعا برنامجها الرسمي إلى الاقتراع العام والانتخابات البرلمانية السنوية . ولكن الحقيقة أن اعضاءها كانوا يحملون آراء جمهورية وكانوا من اتباع توماس بين ، الديموقراطي والمربي الثوري .

٦ – الاشارة لكتاب مالتوس «أطروحة حول مبدأ السكان» الذي طبع في ١٧٩٨ . وقد دعا ماركس هذا الكتاب بأنه « كتاب ضد الثورة الفرنسية والافكار الحديثة للاصلاح الاجتماعي في انكلترا» ودعاه أيضاً بأنه « اعتذار عن بؤس الطبقة العاملة » وقد انتقده بمرارة في « رأس المال » المجلد الاول .

٧ – بقرار البرلمان في ١٨١٩ منع تشغيل الاطفال تحت التاسعة في معامل القطن . اما الاطفال بين التاسعة والسادسة عشرة فان يوم العمل لهم حدد بثلاث عشرة ساعة ونصف الساعة .

٨ – النقابات الثورية : اتجاه نصف فوضوي للبرجوازية الصغيرة ظهر في حركة الطبقة العاملة في عدد من بلدان أوروبا الغربية حوالي نهاية القرن التاسع عشر . لقد رفض النقابيون دور النضال السياسي للطبقة العاملة ودور الحزب ، وديكتاتورية البروليتاريا . وقد أعلنوا أن النقابات تستطيع خلال اضراب عام أن تدحر الرأسمالية وتسيطر على الانتاج بدون اللجوء إلى الثورة .

٩ – البابوفيون أو اتباع بابوف يمثلون الاتجاه « الهجومي » في الشيوعية الخيالية . في ١٧٩٦ شكلوا بدقة المنظمة التآمرية «للأسوياء» مع عملاء بين العمال والجنود . إن هدف هذه المنظمة هو انتفاضة ثورية تقوم بها الطبقة العاملة لتحتل مكانها تحت ارشاد اللجنة الثورية السرية ، إن الروح المحرك لهذه المؤامرة كان اميل فرانسوا بابوف الذي اتخذ في ١٧٩٣ اسم كاميل وفي ١٧٩٤ اتخذ اسم كراشوس وهو اسم خطيب روماني .

١٠ - الاشتراكية الفلسفية أو الحقيقية : اتجاه رجعي ظهر وانتشر في المانيا خلال العقد الرابع من القرن التاسع عشر وبشكل أساسي بين مثقفي البرجوازية الصغيرة . إن ممثلي الاشتراكية «الحقيقية» أمثال ك. كرون و م.هس و ج. كريج استعاضوا عن الافكار الاشتراكية بالوعظ العاطفي عن الاخاء والحب وانكروا الحاجة إلى الثورة الديمقراطية البرجوازية في المانيا هذا الاتجاه انتقده ماركس وانجلز في العقلية الالمانية ، ورسالة ضد كريج ، وبيان الحزب الشيوعي .

١١ - باكونين : مخائيل الكسندروفيتش باكونين (١٨١٤-١٨٦٧) مفكر الفوضوية وعدو الماركسية والاشتراكية العلمية . استبدل النضال السياسي للطبقة العاملة من أجل اقامة ديكتاتورية البروليتاريا « بالنضال الاجتماعي » الذي يعتبره « التدمير الفوري للدولة » و « انفجار أساسي » تنجزه العناصر اللاطبقية والفلاحون. إن تكتيكه عن التآمر ، والثورة الفورية والارهاب يدل على أنه مغامر ويعادي الماركسية .

١٢ - لقد بالغ بليخانوف في تسميته لرودبرتوس اشتراكياً وبالغ في خصائص مؤلفاته ولم يعط انتباهاً للمظاهر الرجعية في آرائه لقد كان رودبرتوس متعاطفاً مع « اشتراكية الدولة » البروسية . وبينما يلاحظ المتناقضات الفردية في طريقة الانتاج الرأسمالي فقد اعتقد ان بالامكان تنميتها داخل إطار الرأسمالي بواسطة الاصلاحات التي سوف تخدم البرجوازية على الاقل خمسمائة سنة أخرى .

صدرت عن دار دمشق

سلسلة الافكار باشراف الدكتور فؤاد أيوب

١ – **اليساري** : تأليف كلود لاينزمان . ترجمة أحسان مراش

٢ – **الحرب والحضارة** : تأليف ارنولد توينبي

في الفكر السياسي

باشراف الدكتور : جمال الاتاسي

صدر الجزء الاول والثاني

١ التقرير المذهبي للاتحاد الوطني للقوى الشعبية بالمغرب

٢ – المنهاج المرحلي للثورة الشعبية العراقية

٣ – ميثاق الثورة الجزائرية

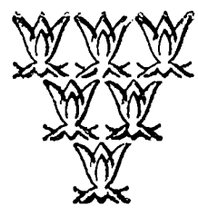

لقد أدى الاشتراكيون الخياليون خدمة عظيمة للانسانية عن طريق نقدهم المرير للنظام الرأسمالي القائم ، مبينين ان الجماهير تزداد فقراً بقدر ما يزداد الرأسماليون تجميعاً للمال الذي يعطيهم القوة والقدرة على اخضاع الآخرين واستثمارهم ، الأمر الذي ينمي التناقضات الطبقية والصراع الطبقي . وفي رأي الاشتراكيين الخياليين أن السمة الرئيسية للحضارة البورجوازية هو عدم المساواة ، الامر الذي يؤدي دائماً الى بؤس الاكثرية الساحقة من المجتمع ، لذا فقد اهتموا بمسألة قمع هذه الظاهرة ، وايجاد الظروف الاجتماعية التي تمكن العامل من تحصيل الثروة التي يخلقها هو نفسه ، معلنين ان السبب الرئيسي لبؤس الجماهير في ظل الرأسمالية يكمن في كون وسائل الانتاج ملكية خاصة بالأقلية بينما الاكثرية لاتملك سوى قوة العمل التي تبيعها للرأسماليين كأي سلعة اخرى في السوق .

لم يكن الاشتراكيون الخياليون يؤمنون بالتقدم فحسب ، بل بأن التقدم يؤدي الى « الغاء استثمار الانسان للانسان » ، وبانه لابد من الثورة في سبيل إحلال الجديد محل القديم ، وإن لم يكن من الضرورة بمكان ان تكون هذه الثورة دموية دائماً ، وهو مايتعلق بسلوك الطبقات العليا والحكومات .

هكذا كانت الاشتراكية الخيالية احد المصادر الرئيسية للماركسية ، لكن هؤلاء الاشتراكيين السابقين للماركسية سرعان مايبينون عجزهم عندما يصلون الى موضوع الاساليب والطرق اللازمة لاحداث التغييرات المطلوبة في المجتمع .

كيف ذلك ؟ وما هي نقائص الاشتراكية الخيالية ؟ هذا ما يبينه بليخانوف في هذا الكتاب الذي يجب ان يطلع عليه الجميع بالخاصة في هذه لمرحلة من تاريخنا التي يتلمس فيها المجتمع العربي طريقه الخاصة الى الاشتراكية ايضاً